ملحق شهري

العربي الجديد

فلسطين

الأحد **29** مارس / آذار 2015 م 9 جمادى الآخر 1436 هـ □ العدد 1 السنة الأولى
Sunday **29**th March 2015

دفتر الانتفاضة

شهادات من 1987
مسرح الأحداث
وخلفياته
3.2

في المواجهة

إلياس عطا الله:
المقاومة اللغوية
هي الجهاد الأكبر
5.4

دوائر الحركة الوطنية

وقفات من القدس
وحيفا وغزة
ورام الله واللجوء
7.6

تصوير: عرين النشّة

جمع شمل أكثر من عائلة

هيئة التحرير

لا يقتصر طموح هذا الملحق على سدّ بعض النقص في الكتابة النوعية لفلسطين وعنها، توثيقاً واستقصاء وتفكيراً وجدلاً، لأجل قضيتها ومعناها وما تمثّله لمسألة التحرر العربية ولسؤال العدالة على هذا الكوكب. فالطموح يتجاوز توفير مادة صحافية سجالية مستندة إلى الذاكرة النضالية، تأخذ من الفكر خلاصاته وهجسه بالممكنات وتجعل من الواقع رافداً عضوياً للأفكار.
فالأخيرة لا يمنحها الانتماء والعافية والإمساك بالجوهري سوى الاتصال الوثيق بالواقع وبالناس - هذه الكلمة التي لا معنى للالتزام بدون إبقاء حياتها ومستقبلها أمران ماثلان في ضمير المشتغل في حقل الأفكار.
الطموح أن يكون هذا المنبر مساحة لتجميع أصوات ولجمع شمل العائلة الفلسطينية، وهي في الواقع ثلاث عائلات. الأولى هي الشعب العربي الفلسطيني وقد قطّع المشروع الاستعماري تواصل من بقي منه في وطنه المحتل، بعزل غزة وحصارها ومحاولات أسرلة أهل فلسطين العميقة (المحتلة عام 1948) وسجن جنوبها «الضفة الغربية» وراء الجدران والمعازل. هذا واقع معروف، ومعروفة أيضاً حالة اللجوء التي ما زالت قائمة منذ 1948. بين خمسة وستة ملايين لاجئ تتوزّعهم مناف ومغتربات قسرية دون أن يخفت توقهم أو تتضاءل أشواقهم إلى العودة. هل تجمع الكلمات عائلة مشتتة؟ هذا ما نظن أنها تصنعه وما نأمل تقديمه.
العائلة الثانية، المشتتة اليوم، هي الحركة الوطنية الفلسطينية، التي يبدو السؤال عنها أكثر إحراجاً عاماً بعد عام. صحيح أن في شباب فلسطين ووثبات أجيالها الجديدة، في السنوات الأخيرة، ما يمنح أملاً حقيقياً، لكن هذه الوثبات تبقى ناقصة بدون التقاء دوائر الحركة الوطنية. قبل عقد ونصف، شرح عزمي بشارة صعوبة قيام حركة وطنية فلسطينية بدون التقاء دوائر الحركة الوطنية الثلاث؛ دائرة فلسطين المحتلة عام 1948 ودائرة فلسطين المحتلة عام 1967 ودائرة فلسطين اللجوء. الآن نجد أن الدوائر الثلاث صرن خمس دوائر، بعزل غزة وحصارها وتدميرها، وبعزل القدس عن بقية «الضفة الغربية» وتفتيت نسيجها الأهلي وزرع خلايا استيطانية في معظم أحيائها.
أما العائلة الثالثة، فهي امتداد فلسطين العربي وتموقعها في العالم عبر الذين عناهم سؤال فلسطين. وإذ يتطلع هذا الملحق لجمع أصوات تمثلهم وتبيّن ملامحهم وشراكتهم في مشروع تحرر لا بديل عنه ولا مستقبل بدونه، فهو يعرف أن أياً من العائلات الثلاث لن تجتمع بدون الأخرى.
بين الدوائر الخمس ستتحرّك كتاباتنا في مسعى للجمع بينها، وتقديم مساحة ومنصة فكرية لحركة وطنية فلسطينية جريئة في مواجهة الاستحقاقات. ندرك أننا عائلة واحدة في مشروع التحرر، وما همّ إن طالت طريقنا أم قصرت.

الانتفاضة الأولى دفتر ذاكرة

بات المسرح جاهزاً في نهايات عام 1987 لولادة الانتفاضة. هنا يقدّم أحد شهود الحدث والمشاركين فيه روايته حول تشكّل «القيادة الوطنية الموحدة» وآليات عملها وعلاقتها مع «منظمة التحرير»، وما يمكن تسميته بسرّ الانتفاضة، وأجواء نهاية الثمانينيات في الشارع الفلسطيني

تيسير عاروري

أعتقد أنه لا يمكن فهم الانتفاضة الأولى بعمق إذا عزلناها عن التطوّرات في الأراضي المحتلة في السنوات السابقة للانتفاضة، وبشكل خاص من أواسط السبعينيات وحتى سنة 1987. سنواتٌ بُذلت خلالها جهودٌ هائلة في بناء التنظيمات الجماهيرية المختلفة من نقابات ولجان العمل التطوعي ولجان الشباب ومنظمات نسائية.. إلخ، ثم جاءت الهبّات الوطنية التي حصلت في مناسبات مختلفة فكانت، حين ننظر إليها من موقع اليوم، أشبه ما تكون بروفات للانتفاضة. في هذه السنوات، أُخذت دروسٌ وعبر حول عملية البناء الثورية. وبالتالي، نستطيع القول إن المسرح بات جاهزًا تماماً في نهايات عام 1987 من أجل بدء الانتفاضة. ستت التنظيمات الجماهير بشكل واسع وشملت مختلف الأعمار. وهذا مهم لفهم حدوث ردة الفعل تلك، أعني الانتفاضة، بعد الشرارة التي تمثلت في حادثة قتل أربعة عمّال بشاحنة إسرائيلية في مداخل غزة.

كانت ردّة فعل نابعة من إحساس الفلسطينيين بأن قضيتهم أصبحت عرضة لخيانة الأنظمة العربية. وذلك انطلاقاً من «قمة عمّان»، والتي ظهرت فيها محاولات للتراجع عن الالتزامات العربية تجاه القضية الفلسطينية، واحتوت على رسائل واضحة لإدارة الظهر للشعب الفلسطيني، وبدا ذلك واضحاً في المعاملة غير اللائقة لياسر عرفات في مطار عمّان. ساهم ذلك في تهيئة المسرح، والحقيقة أن أوّل أسبوع أو أسبوعين من الانتفاضة، كثيراً ما ساد الاعتقاد بأنها هبّة مثل الهبّات السابقة. وقبل ذلك كانت هناك، ومنذ السبعينيات، لجنة التنسيق الفصائلية؛ وهي تضمّ مندوبين عن القوى الأربع لمنظمة التحرير التي كان لها وجود في الأراضي المحتلة، وهي الحزب الشيوعي وفتح والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية. عُقدت هذه اللجنة عدة لقاءات بعد بدء الانتفاضة، وكانت هناك تقديرات مختلفة في البداية، ولكن بعد مرور أكثر من أسبوعين، أصبحت هناك قناعة عند الجميع، بأن هذه الهبّة مختلفة عن الهبّات السابقة، وتتضمن مقوّمات الاستمرار

خلق حالة عالمية

كانت البَدء العمل في «القيادة الوطنية الموحدة» على النحو التالي: يحمل كل عضو أفكاراً من حزبه ومن تنظيمه للاجتماع لمناقشتها ومنها تتكوّن بنود النداء الذي سيصدر، ثم يكلف أحد الأعضاء الأربعة بعمل مسودة للنداء، بناءً على النقاط التي يتم الاتفاق عليها، بما في ذلك، المقدمة السياسية، التي تسبق التوجيهات.

ويقوم الشخص بصياغته، ثم تلتقي هذه الهيئة مرة ثانية، لتستلم النسخ من المسودة، وكل طرف يعيدها إلى مرجعيّته الحزبية لأخذ الملاحظات من جديد.

وبعد أخذ الملاحظات، يعودون للالتقاء ويتفقون على الصيغة النهائية. وهنا يكلّف نفس الشخص الذي قام بصياغة المسودة، بعمل الصيغة النهائية، ويقوم بكتابة أربع نسخ، بعيدها، في اليوم التالي، لزملائه الثلاثة الآخرين، كل منهم يأخذ نسخته ويقوم بعد ذلك كل حزب أو تنظيم بالطباعة والتوزيع على المناطق.

هذا التكليف كان يتم بالمداورة، وبالتالي كانت كل أربعة نداءات تكون قد تمت صياغتها من أربعة أطراف. ويغلب على النداءات طابع التعليمات المشتركة، علماً سيتم عمله قليلاً من أجل إعطاء الفرصة للمناضلين في المواقع المختلفة لأن يبتكروا بحسب ظروفهم.

> ساد الاعتقاد في أوّل أسبوعين من الانتفاضة بأنها مجرّد هبّة

ولم يحصل في أي مناسبة أن صدر نداء - بدءاً من الثالث بالتأكيد - بدون موافقة الأطراف الأربعة، وكان الشرط الذي تم الاتفاق عليه أن القرارات كلها، سواء النداء، أو الجوانب السياسية والاستراتيجية، أو الجانب التكتيكي، تؤخذ بالتوافق (الإجماع) ولا يجوز لأي طرف أن يستفرد بأي شيء.

هموم الناس كانت تصل بحكم أن التنظيمات كانت واسعة الانتشار وموجودة في كل مكان، في كل مدينة، وفي كل مخيم، وفي كل قرية، وبالتالي كانت تصل المعلومات، أولاً بأول.

مثلاً، في الحزب الشيوعي، على الأقل، كان مطلوباً من كل مسؤول في موقع أن يكتب تقريراً أسبوعياً عما جرى وما يجري في حدود المنطقة والصلاحيات. وهذه التقارير كانت تصل المسؤولين ويتم فرزها وتصلني أنا أيضاً. وكانت من جزأين؛ جزء أستفيد منه لتحضير النداء اللاحق، والجزء الثاني، كان يذهب للصحافة، مما هو قابل للنشر. هناك شيء مهم جداً، فبعد بضعة اسابيع من بدء الانتفاضة، كنا نصدر، أيضاً، نشرة باللغة الإنجليزية اسمها FACTS، والتي كانت تصدر عن JMCC The Jerusalem Media and Communications Centre وليس عن القيادة الموحدة، وتتضمن تقارير نضالية مما لا تنشره الصحافة.

الهروب من الرقابة

كانت هناك ثلاثة مستويات من العمل في الصحافة. هناك المعلومات التي تنشرها الصحافة العادية المحلية. وهناك معلومات أوسع، حيث هامش الحرية أوسع، تصدر في جريدة الاتحاد والتي كنا نرسل لها ما كانت تحجبه الرقابة في الصحف المقدسية. وثالثاً، كانت المواضيع التي لا تنشر في كلا المستويين السابقين، تصدر في نشرة FACTS. في البداية، كانت تصدر كل أسبوع بالإنجليزية، وتوزّع على المراسلين. وبعد فترة قصيرة، صرنا نهتم بإرسالها إلى الخارج.

ومثل ذلك مشكلة كبرى، إذ لم يكن باستطاعتنا إرسالها بالفاكس، فكنا نضطر أن نرسلها من فاكس في الداخل، وكل مرة من مكان، وترسل إلى عنوانين، أحدهما في لندن والثاني في براغ. وهناك، كانوا يعيدون توزيعها وطباعتها. بالتالي، كانت تصل للإعلام بعد أسابيع من بدء الانتفاضة، تغيّر الوضع حين جاء صحافيون من العالم لتغطية الأحداث. وكان في JMCC فريق من الشباب يتحدثون الإنجليزية، لم يكن عددهم كبيراً، ممن كانوا يرافقون الصحافيين الأجانب، لأخذهم إلى المواقع المختلفة للترجمة والتغطية.

أكثر ما أثر في العالم هو التكتيكات التي اتبعت في الانتفاضة. كما انبهر الجميع بالانضباطية الهائلة للجماهير تجاه النداء، بمعنى أن الجماهير كانت تلتزم صرنا نرى العلم معلقاً على أسلاك الكهرباء بعد رميه عليها مربوطاً بحجر. ولأنه على سلك الكهرباء، لا يستطيع أحد إنزاله، بالتالي كان يبقى لفترة طويلة والكل يستطيع رؤيته. الشعارات التي كانت تكتب على الجدران، كانت تكتب، أيضاً، بالإنجليزية كما استخدمت العبرية في مناسبات قليلة، بالتحديد ما بين ضاحية البريد حتى القدس.

الديمقراطية المشاركة

يريد الجميع أن يشارك بطريقته في الانتفاضة. وهذا الإبداع الهائل، أوجد عملياً الشغل للجميع من الأطفال وحتى كبار السن من السيدات والرجال. وكان يتجلّى في كل شيء، ليس فقط في المظاهرات أو ضرب الحجارة. ودخلت التجارب تنقل. مثل العلم الفلسطيني تحدياً في غاية الأهمية، إذ كان الشباب يبتدعون طرقاً لكيفية تعليقه. وهكذا بين أساتذة بيرزيت للمشاركة والتفاعل مع الانتفاضة. فتم تاسيس مجموعتين من الأساتذة، ولم تكن أي مجموعة تعرف عن أخرى شيئاً، وكنا نلتقي مرّة في الأسبوع، على الأقل في لقاء يظهر وكأنه لقاء اجتماعي، كنا نتداول فيه شؤون الانتفاضة والأحداث اليومية.

كانت تخرج آراء من كل شخص حسب تخصصه وحسب رؤيته، وكانت هذه الأفكار التي كانت تولد في اللقاء، يتم نقل ما يصلح منها للقيادة الموحدة، وكنت أنا الذي أعددت ورقة عن تجربة اللجان الشعبية خلال الانتفاضة، بأن المنظرين هناك كانوا يعتبرون أرقى شكل للتجربة الإنسانية الديمقراطية المشاركة، هو تجربة الانتفاضة وعملية بناء اللجان الشعبية. ما هي الديمقراطية المشاركة، في النهاية؟ هي أن يشارك الناس في القرار الذي يمسّ حياتهم. ودليل أهمية هذه الترجمة على الصعيد العالمي، هو ما كُتب عنها، ليس فقط في سنوات حدوثها، بل أيضاً ما كتب عنها لاحقاً. كون الانتفاضة استمرّت لفترة غير قليلة، فقد استطاعت أن ترسّخ ديناميكيات داخلية، قادرة على الاستمرار طالما أن المشاركين فيه عشرات ومئات الآلاف من الناس. وما استطاعت أن تقتل الانتفاضة، إلا بعد أن تكالب عليها، ليس فقط الإسرائيليون وأنظمة الرجعية العربية، بل أيضاً بعض دوائر منظمة التحرير الفلسطينية.

رام الله 1988 (ايريك فيفيرس)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

إبعاد عن الشارع

عندما اعتقل تيسير عاروري، للمرة الثالثة عام 1988، وأُبعد عن الوطن على إثرها، اعتبرته منظمة العفو الدولية خلال فترة اعتقاله «سجين ضمير». ولا تخلو تلك التجربة، على مرارتها، من لحظات يتذكرها أستاذ الفيزياء السابق في جامعة بيرزيت بشيء من الاعتزاز الآن: «قد تكون الوثيقة الوحيدة في التاريخ، حتى الآن، التي حصلت على توقيع 1400 بروفيسور فيزياء ورياضيات في العالم، تلك التي حصلت عليها أثناء نضالي ضدّ الإبعاد، والتي وجّهت لإسحق رابين بصفته «وزير الدفاع» آنذاك. تقول الوثيقة «إن قرار إبعاد تيسير عاروري غير قانوني، حيث إنه إذا كان لديكم أي تهم له، فقدموه للمحاكمة وليس الإبعاد». وقد أجاب رابين عن هذه الرسالة في لقاء مع بعض نواب الكنيست، قائلاً لهم «إن إبعاده سيصنع مشكلة، وعدم إبعاده أيضاً هو مشكلة كبيرة، ولكننا لن نتراجع عن القرار».

محطات مفصلية

لجنة التنسيق الفصائلية وتشكيل ق. و. م

أثار الدهس المتعمّد للعمّال حفيظة الناس، وبدأت التحرّكات الشعبية بطبيعة الحال في غزة، إذ تحوّلت جنازتهم في اليوم التالي إلى مظاهرة هائلة ضمّت عشرات الآلاف. في لجنة التنسيق التي باتت تلتقي بشكل مكثف، جرى الاتفاق على أن يصدر النداء، في بدايته لم يكن أسبوعياً، قبل أن يستقرّ الوضع، لاحقاً، وصار يصدر أسبوعياً كل صباح يوم اثنين. وقد تمّ الاتفاق على أن تشكّل هيئة قيادية موحّدة. كان كل طرف من الأطراف الأربعة في لجنة التنسيق، قد رشّح شخصاً، فعرفوا باسم «القيادة الوطنية الموحدة»، وكانت هيئة تنسيق. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أن تشكيلها لم يكن من أعضاء الصفّ الأول ولا من الصف الثاني، بل من الصف الثالث في المراتب الحزبية في فصائلهم. وهذا ليس سراً، لأنه لمّا اعتقلت «القيادة الوطنية الموحدة»، كانت الأسماء معروفة، وبالتالي ما أقوله يؤكد ذلك. منذ أن اتفق على تشكيل أول هيئة تنسيق قيادة وطنية موحدة، أصبحتُ الشخص المسؤول عن ممثلنا (الحزب الشيوعي)، وكانت علاقته بي شخصياً، في الضفة الغربية، حيث كانت هناك قيادة منفصلة في غزة. وتعتبر القيادة المركزية هي القيادة الموجودة في الضفة الغربية، أما في غزة فكان لها طابع محلّي، كما كانت قد تشكلت، أيضاً، لجان تنسيق في مناطق مختلفة، مثلاً في نابلس وبيت لحم وعدة مناطق أخرى. وكانت هذه اللّجان تُصدر بيانات، بالمناسبة، ولكن لم تأخذ حجم النداءات المركزية، وكانت توقع باسم القيادة المحلية، وليس باسم القيادة الوطنية الموحدة.

القيادة الوطنية الموحدة وقيادة م. ت. ف

لم تكن الانتفاضة بقرار من أحد. ولما أصبح لها كل ذلك الزخم والقوة، صارت قيادة المنظمة تسعى لمحاولة احتواء الانتفاضة. الشيء الذي يسجّل هنا، والذي يفسّر لأي درجة كان مستوى التنسيق والتفاهم بين المسؤولين في القيادة الموحدة في الداخل، هو هذه القصة؛ في أحد الأيام، جاءنا مسؤول من فتح قائلاً، إنه وصلته رسالة من تونس تطلب أن يُقرّر النداء في تونس، وأن نرسل إليهم بمسودة على أن يتم إصدار النسخة النهائية من تونس.

ولكنه قبل أن ينهي كلامه قال، نحن نعرف أنكم غير موافقين على هذا الكلام، ونحن، أيضاً، لسنا موافقين. ولكن فلنتفق على طرح الموضوع في الاجتماع، ونحن لن نناقش أي اعتراضات من الزملاء. وهذا ما تم. طرحوا الموضوع، وتم الرفض بناءً على أنه من غير الممكن تلبية هذا الطلب لأن النداء يحاكي الاعتبارات المحلية، ومن في تونس لا يستطيعون الإجابة عن احتياجات الانتفاضة والشارع، وانتهى الأمر بأن انتقلنا لنقاش القضية التالية.

استمر الوضع هكذا، إلى سنة 1990، حين جرى تغيير في طريقة عمل القيادة الوطنية الموحدة، ككل، فقد أحيلت إلى لجنة إعلامية، من شخصيات معروفة موجودة في القدس، وقد كلفوا كناطقين إعلاميين، وكان دورهم إعلامياً فقط. في تلك المرحلة الغيت لجنة التنسيق. وبطبيعة الحال، لم يستمر هذا الوضع طويلاً، فقد تقرر إنهاء القيادة الوطنية الموحدة، حيث لم تتمكن من متابعة العمل لا من حيث القدرة على ذلك بسبب كونهم غير معروفين، وبسبب أنهم لم يكونوا قادرين على طبيعة العمل الذي كان مطلوباً، ففشلت.

جاء ذلك لينهي الأجواء التي كانت سائدة بين أعضاء القيادة الوطنية الموحدة. وأذكر بأنه في أبريل/نيسان 1988، كان شولتس، وزير الخارجية الأميركي، في زيارة للمنطقة سيذهب فيها إلى الضفة الغربية، وجرى اتفاق سرّي (حيث كانت اللقاءات السرية بين الولايات المتحدة وقيادة منظمة التحرير قد بدأت) بأن يعطى الوزير الأميركي الضوء الأخضر ليلتقي بأربع شخصيات فلسطينية في زيارة للمنطقة سيذهب فيها إلى الضفة الغربية، وجرى اتفاق سرّي (حيث كانت اللقاءات السرية بين الولايات المتحدة وقيادة منظمة التحرير قد بدأت) بأن يعطى الوزير الأميركي الضوء الأخضر ليلتقي بأربع شخصيات فلسطينية من الضفة الغربية، وكانت هذه الشخصيات تقف ما بين السلطات الأردنية وحركة فتح. كان قرار القيادة الوطنية الموحدة ضد عقد اللقاء، خاصة هناك كانوا يعتبرون أرقى شكل للتجربة الإنسانية الديمقراطية المشاركة، هو تجربة الانتفاضة وعملية بناء اللجان الشعبية. ما هي الديمقراطية المشاركة، في النهاية؟ هي أن يشارك الناس في القرار الذي يمسّ حياتهم. ودليل أهمية هذه الترجمة على الصعيد العالمي، هو ما كُتب عنها، ليس فقط في سنوات حدوثها، بل أيضاً ما كتب عنها لاحقاً. كون الانتفاضة استمرّت لفترة غير قليلة، فقد استطاعت أن ترسّخ ديناميكيات داخلية، قادرة على الاستمرار طالما أن المشاركين فيه عشرات ومئات الآلاف من الناس. وما استطاعت أن تقتل الانتفاضة، إلا بعد أن تكالب عليها، ليس فقط الإسرائيليون وأنظمة الرجعية العربية، بل أيضاً بعض دوائر منظمة التحرير الفلسطينية.

(شهادة مسجلة قدمها تيسير عاروري لـ «العربي الجديد» الموقع الإنجليزي)

خانيونس 1987 : ألف الإصابة

حملونا، أنا وعلي، في سيارة الإسعاف. كان الدم ينزف. ضحكتُ من المي الشديد، أو من فرحتي بتحقّق شعرية الإصابة

نصر جميل شعث

يومها، أخرجوا تلاميذ المدارس لتشييع شهيد. وكالعصافير، جروا إلى البحر حيث المستوطنات هناك. بدأنا رمي الحجارة على أبراج الاحتلال العالية، وأصيب منّا من أصيب.

رجعتُ إلى البيت سالماً، وقد انتابني شعور بالنقص لأن أترابي من التلاميذ أصيبوا أو استشهدوا..

القبتُ بحقيبة المدرسة في الصالون، وكانت الأحداث مستمرة. وحين عزمت أن أخرج ثانيةً صرخت أمي: «لا تذهب لبعيد.. روح هات جرّة الغاز من دكانة موسى». وخرجتُ بذريعة الجرّة.

كانت الأحداث على أشدّها. في كل ناحية رشقٌ للحجارة ومطاردات جيبات «حرس الحدود» للمتظاهرين بالصدفة، ويدرتني إجري مع اثنين من أبناء عمّي، ووراءنا تماماً جيب لحرس الحدود.

ولأننا لا نملك أجنحة لم نطر. كنا قد وصلنا حارتنا، ولكن بقيت خمس دقائق من الجري لنبلغ بيوتنا. خانتنا أجسادنا الرياضية، فلجأنا لطلب الحماية في دكان الحاج «موسى النجار». ونزل الجنود خلفنا. قبضوا علينا. أحدهم أخذ عكاز الحاج موسى، وانهال علينا بالضرب على كل مكان في أجسادنا.

جندي آخر دفع الحاج وأوقعه وحمل مصفوفات البيض وكسّرها علينا.

أخذونا في الجيب ودارو بنا ساعة على أطراف خان يونس، ولم يكفوا عن التسلّي بنا. استهدفوا فاصل أجسادنا بكعاب البنادق. كنا معصوبي العيون ومقيّدي الأيدي. كوّمونا على بعض في زاوية الجيب. كنت أبكي وفم ابن عمي «أشرف» على أذني. كان يقرأ قصار السور والأدعية على نفسه وعليّ.

في المركز العسكري (الذي تحوّل بقدوم السلطة لمدرسة تحمل اسم «أبو يوسف النجار») فرزونا بحكم السنّ: أنا بعمر 14 سنة، وأشرف بعمر 15 سنة. أما ابن عمي الثاني، جودت، فحُوّل لمكان آخر باعتبار أن عمره كان فوق الـ18.

أخبره أن نصر وأشرف محتجزان المعتقلين من الأطفال والشبان. مع طول إن لم يحضر أهلهما. بعد ساعة وصل أبي وعمّان وبعض الأقرباء. أوّل ما رأني أبي بيد متورمة ووجه مجروح، نفخ في قبضته وضربني أمام الكابتن كفاً، وقال له الكابتن: «يا حج هذا جاي تربّي ابنك». أجبر الكابتن أبي على التوقيع على تعهّد بعدم تكرار ذلك، ودفع غرامة قدرها 1000 شيكل، وهي كبيرة يومها على أب مسن لا يعمل، لكن لم يكن له خيار وإلا سأحبس أسبوعاً، وقد اقترب موعد تقديم الامتحانات النهائية، وكنت في الصف الثاني إعدادي.

أما أشرف فقد حُبس أسبوعاً لتعذّر دفع أهله الغرامة. وبمرور الأيام، عاش أشرف الدور، فكان في كل زيارة يومية يقوم بها المحامي غسان، يطلب منه إحضار السجائر. أما جودت، فقد خُوّل إلى سجن النقب وحكم عليه بالسجن سنة.

بعد التعهد بدفع الغرامة، فكّ أسري، وأخذوني إلى مستشفى ناصر (نسبة إلى جمال عبد الناصر) في غرب خان يونس، وصوّروني وكنت أعاني من كسر خفيف في يدي ورضوض ووجع عظام.

غسّان. اتصل به وقال له أمامنا: «فيه هدية لكم عندي تعالوا خذوها».

أخبره أن أشرف وأشرف محتجزان وسيحبسان ويُرحّلان إلى سجن النقب من إن لم يحضر أهلهما. بعد ساعة وصل أبي وعمّان وبعض الأقرباء. أوّل ما رأني أبي بيد متورمة ووجه مجروح، نفخ في قبضته وضربني أمام الكابتن كفاً، وقال له الكابتن: «يا حج هذا جاي تربّي ابنك». أجبر الكابتن أبي على التوقيع على تعهّد بعدم تكرار ذلك، ودفع غرامة قدرها 1000 شيكل، وهي كبيرة يومها على أب مسن لا يعمل، لكن لم يكن له خيار وإلا سأحبس أسبوعاً، وقد اقترب موعد تقديم الامتحانات النهائية، وكنت في الصف الثاني إعدادي.

أما أشرف فقد حُبس أسبوعاً لتعذّر دفع أهله الغرامة. وبمرور الأيام، عاش أشرف الدور، فكان في كل زيارة يومية يقوم بها المحامي غسان، يطلب منه إحضار السجائر. أما جودت، فقد خُوّل إلى سجن النقب وحكم عليه بالسجن سنة.

بعد التعهد بدفع الغرامة، فكّ أسري، وأخذوني إلى مستشفى ناصر (نسبة إلى جمال عبد الناصر) في غرب خان يونس، وصوّروني وكنت أعاني من كسر خفيف في يدي ورضوض ووجع عظام.

طه حسين في مخيم رفح

التصقت ذكرى ايام منع التجول تلك باجواء مسلسل «الايام»، حيث العتمة والكآبة التي كانت تسكن حياة طه حسين موازية لكآبتي

هاني زعرب

لم أفهم بداية معنى الكلمات التي كنت أسمعها تنشر في فوهة مكبّر صوت محمول على سيارة لا تكفّ عن الضجيج. وبعد الاستفسارات الملحّة والمدقّقة التي كنت أنهك بها والديّ، عرفت بأن هؤلاء هم جنود من الجيش الإسرائيلي، ويمنعوننا من الخروج من البيت.

منذ تلك اللحظة، دخل قاموسي مصطلح «ممنوع التجول» وبما أن مدارسنا مغلقة، فدكانة أم دبّاب المكدسة بـ«شعر البنات» و«راس العبد» وبسكويت «الويفر» مغلقة، وكذلك بيت بنت الجيران مغلق، وحتى البحر مغلق. تقاطع شارعين، من المشاوع الكبيرة نسبياً. ووفق هذا الموقع، ستكون شبابيكه مرمى لأي شيء ممكن أن تقذفه ايات هؤلاء الجنود.

التصقت ذكرى أيام منع التجول تلك بأجواء مسلسل «الأيام»، حيث العتمة والكآبة التي كانت تسكن حياة طه حسين موازية لكآبتي حينها؛ شكلُ البيت ولون جدرانه والضوء الأصفر الخافت للمصابيح، والأشياء التي كنت أراها بنفس الدرجة من الظل والنور في كل الأوقات، والتي أثارت فيّ تساؤلاً: ماذا يعني أن تكون أعمى وقد خُلقت لترى؟ كانت أيام «منع التجوّل» تطول أحياناً، ففي إحدى المرّات، تواصل حتى 40 يوماً؛ ولم يكن بوسعي الهروب من هذا الاختناق سوى إلى المكتبة: حيّز صغيرٌ في نهاية البيت، تملؤها رائحة الرطوبة المختلطة برائحة الحبر والورق القديم وسم الفئران، ولكنها لم تكن مطلة على الشارع، وهذا الأهم.

هنا بدأت أقرأ على مضض، سيما وأن التلفزيون لم تكن فيه سوى قناة مصر الأولى والثانية المليئتان بالمسلسلات المملة غالباً، باستثناء مسلسل «الأيام» الذي لم أضع حلقة واحدة منه، مثل عمتي جازية، التي كانت تبكي كلما شاهدت حلقةً منه تقول: «مسكين يا طه». لكن في الحلقات الأخيرة عندما بدأت مرحلة تشكيكه بالدين والأزهر، غيّرت رأيها: «وَلّ.. الله ينكبك يا طه هذا كمان لو إنك مش أعمى!» ومن بعدها امتنعت عن مشاهدته.

القناة الثالثة والأخيرة في تلفزيوننا كانت «التلفزيون الإسرائيلي» الناطق بالعربية، والذي كنا ننتظر فيه الأخبار المصورة على السابعة والنصف مساءً بتوقيت «أورشليم القدس» لنعرف عدد الشهداء في هذا اليوم، وعلّنا نسمع أي خبر عن نهاية منع التجول هذا.

من أكثر تفاصيل أيام الانتفاضة الأولى رسوخاً في ذاكرتي: لحظات الفجر، عندما كانت تختلط الأصوات الآتية من كل صوب: صوت الأذان الآتي من رفح المصرية التي يفصلها عنا سياج حدودي شائك آنذاك، وصوت فايزة أحمد التي يعشقها أخي الكبير نهرو، وصوت فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب اللذين لم يسكتا في مذياع أبي، وكلما انتهت أغنية لأحد منهما لعن «العيشة» بجملة مركبة تختصر الوضع المركّب الذي نعيشه، وحرك المؤشر بحثاً عن أغنية أخرى.. وصوت عبد الحليم تارة وأم كلثوم تارة أخرى من صوب فراش أخواتي في الغرفة المجاورة، وصوت جندي بلا وجه يسوق عربة تشخر نغمة شاذة بلغة عربية مكسرة: «منع التجول ساري المفعول حتى إشعار آخر.. واللي بيتلع من بيتو بيعرض نفسو للخطر.. ناموا»!

كل هذه الأصوات ما زلت أسمعها الآن وأنا أكتب هذه الكلمات في مرسمي في باريس، والتي ستبقى تبثّ في روحي مقاومة سارية المفعول.. أيضاً حتى إشعارٍ آخر.

فوتوغرافيا: تيسير البطنيجي

في المواجهة

حاورته **ناهد دربس**

يقف إلياس عطا الله في طليعة اللغويين العرب الذين يوثقون الصلة بين اللغة والهوية ومستقبل الإنسان العربي ومشروع تحرره، وهو في فلسطين المحتلة عام 1948 العمود الواسط لبيت العربية والعارف للبنات صمودها في مواجهة السياسات الاستعمارية، إذ يرى في صمود العربية إسقاطاً لفعل النكبة الثّانية. في هذا الحوار، تتبيّن ملامح معركة اللغة العربية في فلسطين لدى مثقف جمع في مسيرته بين التأليف والتنظير في علم اللغة وبين النضال الميداني والعمل المجتمعي الوطني، تصحبه في كل ذلك جدارة مقترنة بتواضع نادر

المقاومة اللغويّة هي الجهاد الأكبر

إلياس عطا الله

■ النكبة لا تكتمل فصولها إلّا بنكبة اللسان

■ يستغرب بعضهم حفاظ الشعب الفلسطينيّ في فلسطين المحتلّة عام 1948 على لغته العربيّة كجزء من تمسّكه بهويّته، كيف توصّف ملامح هذه المعركة اللغويّة والمراحل التي مرّت بها؟

لا أستهجن هذا الاستغراب، وأردّه إلى عقود طويلة من الجهل والتجاهل «العربيّين» لوجودنا عربًا فلسطينيّين ظلّوا في وطنهم الذي صار يدعى إسرائيل؛ فمنذ أن بدأنا نزور بعض الدّول العربيّة جنيْنا فكرة يهوديّتنا أو إسرائيليّتنا حين قيل لهم إنّنا «من إسرائيل»، وكنّا نرى الاستغراب والدهشة في العيون؛ لا شكّ في أنّ الأمور تغيّرت الآن، نحن نحافظ على لغتنا لأنّنا، بها، نحافظ على هويّتنا وعروبتنا وانتمائنا؛ بقاءُ العربيّة إسقاطٌ لفعل النكبة الثّانية، فالنكبة التي بدأت بالإنسان لا تكتمل فصولها إلّا باللسان، وهذا ما تسعى إليه الدولة العبريّة بممارسات جليّة، وأخرى خفيّة. عرفت الصهيونيّة منذ البداية وقبل النكبة أنّ اللغة تبني الأمم، ولذا حرصت على عبرنة كلّ اليهود الذين دخلوا فلسطين من أرجاء العالم، يحملون لغات أوطانهم ولهجاتهم، أدخلوهم في «بوتقة الصهر» أعواماً، وغرست فيهم العبريّة الإسرائيليّة حديثة العهد لتأسيس شعب، وبنت مؤسّساتها الأكاديميّة قبل الـ 48 (التخنيون والجامعة العبريّة)، لتُوضَع قواعد ترسي عليها دولة؛ أرض وسيادة ولغة قومية وعلوم، وفي الوقت نفسه تنزعوا من الفلسطينيّين هذه المقوّمات، فلا أرض ولا سيادة ولا تعليم، ولم يقضّ مضجعهم إلّا العربيّة وشيجة قوميّة، فحاولوا، رغم رسميّتها القانونيّة، نزْع هذه الرسميّة بالممارسة لا بالتشريع، وكانَ لسان حالهم يقول: الزمن فاعلٌ لا محالة فعله؛ كلّ ما حولك يرغمك على إجادة العبريّة، لا التعليم من الطفولة المبكرة فحسب، بل لا مناصّة علاقة المواطن بالمؤسّسة الحاكمة الناطقة بالعبريّة، بربّ العمل العبريّ، بضروريات حياتك اليوميّة، تنقّلك، صحّتك، قضاياك، شوارعك، لأوقات المحالّ التجاريّة... كلّ شيء ينطق بالعبريّة، وإن شئت الانخراط في الدراسة الأكاديميّة، فجواز دخولك العبريّة، حتّى إلى أقسام اللغة العربيّة. هذه، وعوامل أخرى كثيرة، تجعلك تتعبرنُ قسرًا لتدبّر أحوال معيشتك و«مواطنتك»، بكلمات أخرى، أفقدنا على واقع كون العبريّة لغة مهيمنة حاكمة، والعربيّة لغة محكومة مدحورة، تسمع منها ما تريد السلطة أن تسمع، تتعلّم منها ما تريد أن تتعلّم، ومن هنا بدأت سياسة تهميش العربيّة وتشويهها، أملين أن تقع القطيعة بين الفلسطينيّ وأمّته وحضارته جزّاء برطمته بالعربيّة الخالية من العربيّة.

علاقتنا بالعربيّة وتشبّثنا بها نابعان من إيماننا بأنّ الأمم تسقط بسقوط لغاتها، وتبقى وترقى ببقاء لغاتها. وضياع لغتنا لا يعني إلّا انْدثارنا، وباطل نضالنا وباطلة طموحاتنا إلى التحرّر والعودة والحقّ... تمسّكنا بالعربيّة شرط بقاءُ العربيّة إسقاطٌ لفعل النكبة الثّانية، فالنكبة التي بدأت بالإنسان لا تكتمل فصولها إلّا باللسان، وهذا ما تسعى إليه الدولة العبريّة بممارسات جليّة، وأخرى خفيّة. عرفت الصهيونيّة منذ البداية وقبل النكبة أنّ اللغة تبني الأمم، ولذا حرصت على عبرنة كلّ اليهود الذين دخلوا فلسطين من أرجاء العالم، يحملون لغات أوطانهم ولهجاتهم، أدخلوهم في «بوتقة الصهر» أعواماً، وغرست فيهم العبريّة الإسرائيليّة حديثة العهد لتأسيس شعب، وبنت مؤسّساتها الأكاديميّة قبل الـ 48 (التخنيون والجامعة العبريّة)، لتُوضَع قواعد ترسي عليها دولة؛ أرض وسيادة ولغة قومية وعلوم، وفي الوقت نفسه تنزعوا من الفلسطينيّين هذه المقوّمات، فلا أرض ولا سيادة ولا تعليم، ولم يقضّ مضجعهم إلّا العربيّة وشيجة قوميّة، فحاولوا، رغم رسميّتها القانونيّة، نزْع هذه الرسميّة بالممارسة لا بالتشريع، وكانَ لسان حالهم يقول: الزمن فاعلٌ لا محالة فعله؛ كلّ ما حولك يرغمك على إجادة العبريّة، لا التعليم من الطفولة المبكرة فحسب، بل لا مناصّة علاقة المواطن بالمؤسّسة الحاكمة الناطقة بالعبريّة، بربّ العمل العبريّ، بضروريات حياتك اليوميّة، تنقّلك، صحّتك، قضاياك، شوارعك، لأوقات المحالّ التجاريّة... كلّ شيء ينطق بالعبريّة، وإن شئت الانخراط في الدراسة الأكاديميّة، فجواز دخولك العبريّة، حتّى إلى أقسام اللغة العبريّة. هذه، وعوامل أخرى كثيرة، تجعلك تتعبرنُ قسرًا لتدبّر أحوال معيشتك و«مواطنتك»، بكلمات أخرى، أفقدنا على واقع كون العبريّة لغة مهيمنة حاكمة، والعربيّة لغة محكومة مدحورة، تسمع منها ما تريد السلطة أن تسمع، تتعلّم منها ما تريد أن تتعلّم، ومن هنا بدأت سياسة تهميش العربيّة وتشويهها، أملين أن تقع القطيعة بين الفلسطينيّ وأمّته وحضارته جزّاء برطمته بالعربيّة الخالية من العربيّة.

**علاقتنا بالعربيّة وتشبّثنا بها نابعان من إيماننا بأنّ الأمم تسقط بسقوط لغاتها، وتبقى وترقى ببقاء لغاتها. وضياع لغتنا لا يعني إلّا انْدثارنا، وباطل نضالنا وباطلة طموحاتنا إلى التحرّر والعودة والحقّ... تمسّكنا بالعربيّة شرط بقاءُ العربيّة إسقاطٌ لفعل النكبة الثّانية، فالنكبة التي بدأت بالإنسان لا تكتمل فصولها إلّا باللسان، وهذا ما تسعى إليه الدولة العبريّة بممارسات جليّة، وأخرى خفيّة. عرفت الصهيونيّة منذ البداية وقبل النكبة أنّ اللغة تبني الأمم، ولذا حرصت على عبرنة كلّ اليهود الذين دخلوا فلسطين من أرجاء العالم، يحملون لغات أوطانهم ولهجاتهم، أدخلوهم في «بوتقة الصهر» أعواماً، وغرست فيهم العبريّة الإسرائيليّة حديثة العهد لتأسيس شعب، وبنت مؤسّساتها الأكاديميّة قبل الـ 48 (التخنيون والجامعة العبريّة)، لتُوضَع قواعد ترسي عليها دولة؛ أرض وسيادة ولغة قومية وعلوم، وفي الوقت نفسه تنزعوا من الفلسطينيّين هذه المقوّمات، فلا أرض ولا سيادة ولا تعليم، ولم يقضّ مضجعهم إلّا العربيّة وشيجة قوميّة، فحاولوا، رغم رسميّتها القانونيّة، نزْع هذه الرسميّة بالممارسة لا بالتشريع، وكانَ لسان حالهم يقول: الزمن فاعلٌ لا محالة فعله؛ كلّ ما حولك يرغمك على إجادة العبريّة، لا التعليم من الطفولة المبكرة فحسب، بل لا مناصّة علاقة المواطن بالمؤسّسة الحاكمة الناطقة بالعبريّة، بربّ العمل العبريّ، بضروريات حياتك اليوميّة، تنقّلك، صحّتك، قضاياك، شوارعك، لأوقات المحالّ التجاريّة... كلّ شيء ينطق بالعبريّة، وإن شئت الانخراط في الدراسة الأكاديميّة، فجواز دخولك العبريّة، حتّى إلى أقسام اللغة العبريّة. هذه، وعوامل أخرى كثيرة، تجعلك تتعبرنُ قسرًا لتدبّر أحوال معيشتك

■ الأسرلة هي المنطلق في مناهج التعليم

■ جهاز التعليم التربويّ الإسرائيليّ هو من يحدّد مناهج تعليم اللغة العربيّة في المدارس والجامعات أيضا، كيف تعمل هذه المناهج أو ما هو جوهر سياستها؟

الأسرلة والصهينة هما المنطلق في مناهج التعليم، وتزييف الزمان والمكان في التاريخ والجغرافيا، كافيان لنسف الفلسطينيّ في غربة عن وطنه وتاريخه وقوميّته، وفي هذا المضمار جاءهم الردّ على أكثر من مستوًى؛ معلّمونا، على الغالب، ينقلون الحقيقة، ومؤسّساتنا تحيي بالرحلات إلى الجفاف الدين تعدّت الأخطاء، فالجسم القيّم على إقرار الكتب ووسائل تواصلهم، يُشيعون الاسم العربيّ لكلّ مكان ومكان، بل يخترعون أسماءً عربيّة لأماكن عبريّة. أمّا على صعيد الأخطاء، فقد أزحنا النقاب عن الاف الأخطاء اللغويّة، ونشرنا ما وقفنا عليه في كلّ مكان، ووصلنا إلى البرلمان العبريّ، رغم أنّنا لا نعوّل عليه، ولكنّنا أفلحنا في إلغاء الكثير من كتب التدريس، وفي إرغامهم على وضع معايير لغويّة جليّة تضمن السلامة اللغويّة. ورغم هذه المعايير، ما زالت الكتب تعجّ بآلاف الأخطاء، فالجسم القيّم على إقرار الكتب لم يخضع لمعايير الوزارة، والظاهر أنّه فوق القانون، بل هو القانون المتعمّد للتشويه، بتعليمات وزاريّة صهيونيّة صعيد الأخطاء، فقد أزحنا النقاب عن الاف الأخطاء اللغويّة، ونشرنا ما وقفنا عليه في كلّ مكان، ووصلنا إلى البرلمان العبريّ، رغم أنّنا لا نعوّل عليه، ولكنّنا أفلحنا في إلغاء الكثير من كتب التدريس، وفي إرغامهم على وضع معايير لغويّة جليّة تضمن السلامة اللغويّة. ورغم هذه المعايير، ما زالت الكتب تعجّ بآلاف الأخطاء، فالجسم القيّم على إقرار الكتب لم يخضع لمعايير الوزارة، والظاهر أنّه فوق القانون، بل هو القانون المتعمّد للتشويه، بتعليمات وزاريّة صهيونيّة

جدارية
من جسر الزرقاء
(تصوير: محمد بدارنة)

■ هل تجد للمخاوف من اندثار أو تلاشي اللغة العبريّة أو طغيان العبريّة لدى فلسطينيّي الداخل ما يبرّرها؟

على بعض لحظات الغضب التي تعتريني، حين أجد نفسي مضطرًا لإفهام طالب/ة عربيّ/ة مفردة عربيّة يترجمونها إلى العبريّة، أصرخ من ياسي الأنيّ ووجعي: في الوطن المنكوب ستسقط العربيّة آخر معاقل العرب. هي صرخة وجع عاشق إن شئتم، وهي صرخة نفير وزعزعة لضمير. لا أخشى على فصحانا، فحالُها في الدّاخل كحالها في أيّ بلدٍ عربيّ، بل لعلّنا في الداخل نستشعر الخطر بحساسية أكبر، ولذا تزداد «شراستنا» في الذود عن العربيّة. الخطر الحقيقيّ قد يلحق بلغة الأمّة؛ الفصحى عبر لغة الأمّ العامّيّة، وهذه تتعرّض للاقتحام فعلًا، قسرًا قطوعًا، أي أنّنا انتقلنا من العبرنة إلى التّعبرُن، والعوامل كثيرة، ذكرت بعضًا منها سابقًا، ولأنّنا نتمسّك باللغة برواياتِها، نعمل جاهدين للمحافظة عليها، والتوعية إلى الخطر المحدق بها، المتمثّل في حقيقة أنّ الكفّ عن التكلّم بلغتنا، يعني أنّ لغتنا لن تتكلّمنا... ستتكلّمنا لغة الآخر؛ العبريّة، وستذهب الأنا الفاعلة المخيرة المخبّرُ عنها، والـ«أنا» المتلقّية، والياء صاحبةُ الملك والملكية والإسناد، بمدلولها الفرديّ والجمعيّ، إمّا إلى الجحيم، أو إلى الطقوسيّة، أو لتضاف إلى أمثال الآخر. ولأنّنا عربٌ في وطننا، ولا نقبل ذلًّا وظلْبَة وانسلاخًا عن أمّتنا، نقول مقالة الرافعيّ: «ما ذلّت لغةُ شعبٍ إلّا ذلّ، ولا انحطّت إلّا كان أمره في ذهابٍ وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبيّ المستعمِرُ لغته فرضًا على الأمّة المستعمَرة»، ورغم كوننا في محيط عبريّ، نعرف الجمعَ بين كرامة لغتنا وكرامتنا، ونعرف أنّنا توأمان غير منفكّين.

■ عملتم في «جمعيّة الثقافة العربيّة» على دراسة المناهج الدراسيّة باللغة العبريّة المفروضة من المؤسّسة الإسرائيليّة. في مشروع استغرق العمل عليه سنوات: ما هي أبرز نتائج هذا المشروع؟

في جمعيّة الثّقافة العربيّة، أجرينا ثلاثة أبحاث شاملة، قرأت المناهج وكتب التدريس، وتفحّصت ما فيها من تشويه مضمونيّ ولغويّ، فعلى صعيد المضامين، هيمنت الرواية الصهيونيّة في كتب التاريخ والجغرافيا والمدنيّات المنطلقات. على صعيد المناهج في التاريخ والجغرافيا والمدنيّات، لا إخالنا قادرين على إرغام الوزارة على التغيير، فالدول لها جيشان أساسيّان؛ العسكر، ووزارة التربية، فالتعليم سوط الغالب، ووكيل المتسلّط، ولذا، علينا أن نبني مناهج بديلة مكمّلة.

■ ما هي البدائل أمام المجتمع الفلسطينيّ، في ظلّ هيمنة المؤسّسة الإسرائيليّة على تعليم اللغة العربيّة؟

لا أرى بديلًا، الآنَ، سوى الاستقلال الذّاتيّ، وفي أضعف الإيمان الاستقلال الثّقافيّ، في سائر الاحتمالات ستظلّ الدولة العبريّة مهيمنة على مناهج التدريس. القضيّة ليست تعليم اللغة العبريّة في دروس اللغة العبريّة، فهذه لا تشكّل إلّا الجزء اليسير، القضيّة في تدريس كلّ المواضيع بالعبريّة - عدا اللغات الأجنبيّة، وفي حقيقة كون كلّ معلّم عربيّ معلّمًا للعبريّة؛ مررنا بتجربة وجود مسئولين من العرب في وظائف كثيرة في الوزارة، ولكنّ هؤلاء ليس بمقدورهم أن يفعلوا شيئا يتجاوز حراستهم للمنهاج الإسرائيليّ، أو مراقبتهم لسير العمل «الصالح» في المدارس العربيّة، هم منفّذون لسياسات، ليسوا واضعين لها. مررنا أيضًا بتجربة إلى قوميّات ومذاهب وطوائف، وترجمته بخلق أجسام هجينة في وزارة المعارف ذات مناهج متغايرة، تكرّس «القوميّة البدويّة»، و«القوميّة الدرزيّة»... والحديث جارٍ عن «القوميّة الآراميّة» للمسيحيّين؛ وكلّ ذلك من أجل انضواء هذه «الطوائف» في خدمة المؤسّسة، بدءا بالخدمة المدنيّة، وانْتهاء بالخدمة العسكريّة، قسرًا أو طوعًا. لا أستطيع الادّعاء أنّ وزارة التربية تضع مناهج الجامعة بالتفصيل، فالخطوط العريضة في الإجماع القوميّ الصهيونيّ موجودة، أمّا المساقات، فلها حيّزها، يتّسع أو يضيقُ وفقًا لنوع الكلّيّة، ووفقًا للأستاذ نفسه. لا نتحدّث في إسرائيل عن مؤسسة لا تتّسم بالفكر الصهيونيّ؛ من هذا المجلس العالي، نزولًا إلى الوزارة بأجسامها. هناك موظّفون عرب، لا يقرّرون في نوعيّة السياسات ولا المناهج، هم «ظاهرة ديمقراطيّة» فقط.

■ رغم أنّ اللغة العبريّة تعتبر لغة رسميّة من الناحية القانونيّة، إلا أنّنا نلحظ تهميشًا تامًا لها من المؤسّسة وقلّة من يتعلّمها من الإسرائيليّين خارج الدوائر الأمنيّة، بل ونلحظ نوعًا من «فوبيا العربيّة» لدى الإسرائيليّ، سواء بالنسبة لرؤيتها أو لسماعها، هل مردّ هذا إلى السياسات؟ أم للمسألة جانبها النفسيّ والعنصريّ؟

هي رسميّة زائفة ومبتورة، الرسميّة هي اللغة العبريّة فقط، وما يرسمه الحبر على الأوراق المؤرشفة لا يعني لي شيئا، كفاني أن أشير إلى أنّ العربيّة ليست لغة رسميّة في أيّ قسم أكاديميّ للّغة العبريّة، وليست لغة رسميّة في أيّ من الوزارات الإسرائيليّة. منذ بن غوريون وغولدا مئير والعربيّة مصدر غيظ، يعبّر عنه بخفوت حينًا، وبنباح أحيانًا؛ المحكّ هو الممارسة، ونحن نعيش إمعانًا في التطرّف والعداء لكلّ ما هو عربيّ. أشرت سابقًا إلى أنّ النكبة لا تكتمل فصولها إلّا بنكبة اللسان، ولذا، فإن شرعيّة العبريّة المنصوص عليها منذ عام 1920، بلهثون للتخلّص منها، ونحن نرى شراسة وحقد عدد من المشرّعين الإسرائيليّين وهم يبحثون عن «مكانة خاصّة» للعربيّة الرسميّة، وتزداد الأمور قبحًا في الشارع اليهوديّ المعادي لكلّ ما هو عربيّ، بحيث أصبح الحديث بالعربيّة سببًا للاعتداء على المتحدّث في أماكن كثيرة. قد يجوز لي، من باب المفارقة، أن أشكر المؤسّسات التي يكتب أصحابها بالعربيّة، لا عشقًا، بل طمعًا بالربح والتجارة. مردّ هذا كما أرى كامن في حقيقة اعتقادهم بيهوديّة الدولة، وتطلّعهم نحو الترانسفير، متلفّعين بكره العرب والفلسطينيّين، هي دائرة شيطانيّة لا تعرف لها بداية من نهاية، موتور يحمل حقدًا، فيحمله حقده وعنصريّته إلى الكنيست، وهناك يجد منبرًا لفكره العنصريّ الموبوء ليسبغ شرعنة على عنصريّته، وهكذا دواليك.

■ رغم قرابة العربيّة والعبريّة كلغتين ساميّتين، قامت الحركة الصهيونيّة بنوع من غربنة العبريّة ومحاولة لتقريبها، من ناحية المصطلحات، إلى اللغات الغربيّة، كيف تقرأ هذه المحاولة سياسيًا؟ وهل هي مستمرّة حتى اليوم؟

فكرة كون العربيّة والعبريّة لغتين ساميّتين تحتاج إلى توضيح؛ العبريّة هنا هي «العبريّة الإسرائيليّة»، لا عبريّة العهد القديم المختلطة بالسريانيّة/ الآراميّة، وعبريّتهم الحديثة هذه وليدة الصهيونيّة لتأسيس أمّة ودولة، وقد تشكّلت بالاعتماد على عبريّة العهد القديم دون الاتّكاء على المصدر تقديسًا، واستعارت الكثير من العربيّة الفصحى والمعاصرة، والكثير من لغات البلدان التي عاشوا فيها قبل إقامة إسرائيل، وبخاصّة الألمانيّة والفرنسيّة، ثمّ دخلت الإنجليزيّة لأنّها اللغة الدوليّة. إنّ هذا الواقع ليس فصولها إلّا بنكبة اللسان، ولذا، فإن شرعيّة العبريّة المنصوص عليها منذ عام 1920، يلهثون للتخلّص منها، ونحن نرى شراسة وحقد عدد من المشرّعين الإسرائيليّين وهم يبحثون عن «مكانة خاصّة» للعربيّة الرسميّة، وتزداد الأمور قبحًا في الشارع اليهوديّ المعادي لكلّ ما هو عربيّ، بحيث أصبح الحديث بالعربيّة سببًا للاعتداء على المتحدّث في أماكن كثيرة. قد يجوز لي، من باب المفارقة، أن أشكر المؤسّسات التي يكتب أصحابها بالعربيّة، لا عشقًا، بل طمعًا بالربح والتجارة. مردّ هذا كما أرى كامن في حقيقة اعتقادهم بيهوديّة الدولة، وتطلّعهم نحو الترانسفير، متلفّعين بكره العرب والفلسطينيّين، هي دائرة شيطانيّة لا تعرف لها بداية من نهاية، موتور يحمل حقدًا، فيحمله حقده وعنصريّته إلى الكنيست، وهناك يجد منبرًا لفكره العنصريّ الموبوء ليسبغ شرعنة على عنصريّته، وهكذا دواليك.

■ رغم قرابة العربيّة والعبريّة كلغتين ساميّتين، قامت الحركة الصهيونيّة بنوع من غربنة العبريّة ومحاولة لتقريبها، من ناحية المصطلحات، إلى اللغات الغربيّة، كيف تقرأ هذه المحاولة سياسيًا؟ وهل هي مستمرّة حتى اليوم؟

فكرة كون العربيّة والعبريّة لغتين ساميّتين تحتاج إلى توضيح؛ العبريّة هنا هي «العبريّة الإسرائيليّة»، لا عبريّة العهد القديم المختلطة بالسريانيّة/ الآراميّة، وعبريّتهم الحديثة هذه وليدة الصهيونيّة لتأسيس أمّة ودولة، وقد تشكّلت بالاعتماد على عبريّة العهد القديم دون الاتّكاء على المصدر تقديسًا، واستعارت الكثير من العربيّة الفصحى والمعاصرة، والكثير من لغات البلدان التي عاشوا فيها قبل إقامة إسرائيل، وبخاصّة الألمانيّة والفرنسيّة، ثمّ دخلت الإنجليزيّة لأنّها اللغة الدوليّة. إنّ هذا الواقع ليس فصوله إلّا بنكبة اللسان، وهذا ما يدفعنا إلى مقاربة المكان الواقع تحت الاحتلال مقاربة نقدية تستمد ديناميّاتها من أدبيات الكولونياليّة، بالتعاضد مع دراسات علم الإناسة والثقافي فيما يتعلق بالمكان والعمارة وتفكيكها نقديًا.

في سياق الاستعمار الاستيطانيّ لفلسطين الذي قام باحتلال الأرض/ المكان، يملك اليهوديّ حصرًا حقّ «التجربة المكانيّة». وهنا نرى مثالًا «قانون أملاك الغائبين»، ودوره في طمس «تجربة» الفلسطينيّين المكانيّة و«تغييبها» لحساب «مادية» التجربة المكانيّة الصهيونيّة قانونيًا، مع إيلاء اللغات الأخرى العناية الكاملة.

■ هل يمكن المقارنة بين الفلسطينيّين في الداخل واستعمالهم للّغة العبريّة في الحديث والتعبير الكتابيّ، مع شعوب عربيّة تعرّضت لاستعمار لغويّ مثل شعوب المغرب العربيّ كالجزائر وتونس مثلًا وتأثير لغة الاستعمار الفرنسيّ حتى اليوم؟

وضع العربيّة في الداخل وضع خاصّ جدًا، فالطفل العربيّ أمام قسريّة لغويّة رباعيّة؛ العربيّة العامّيّة المكتسبة (لغة الأمّ)، والعربيّة المعياريّة المدرّسة (لغة الأمّة)، والعبريّة (اللغة الغالبة المهيمنة)، والإنجليزيّة (اللغة الدوليّة)، ثلاث لغات تنافس- ومن سنّ مبكّرة- اللغة الفصيحة؛ وضعنا خاصّ لأنّنا محكومون للعبريّة. أمّا الدول العربيّة فلا أفترض فيها هذا الوضع، فهي دول مستقلّة، ويُفترض أن تكون العربيّة لغةً سيّدة، فإن رأينا غير ذلك فثمّة شيء معطوب، قد تشبه حالتنا حالة الأمازيغ في عربيّتهم، ولكنّ حالتهم، وقد استقلّوا، أيسر من حالتنا، والحلول كثيرة، والتنجيح أمامهم مفتوح. وأعرف أنّهم قطعوا أشواطًا في إعلاء شأن العربيّة.

■ هل يمكن أن نتحدّث عن مشروع مقاومة لغويّة، بشكل خاصّ في فلسطين وربما في مناطق أخرى من العالم العربيّ؟

المقاومة اللغويّة هي الجهاد الأكبر في فلسطين، وجهاد في غيرها؛ على العرب أن يرقوا بالعربيّة لترقى بهم، وعلى المؤسّسات التربويّة أن تضع إستراتيجيّات تعليميّة تربويّة عصريّة، والأهمّ من هذا وذاك: على المؤسّسات الأكاديميّة إعلاء شأن العربيّة بجعلها لغة التدريس والأبحاث الأولى، نقول هذا، مع إيلاء اللغات الأخرى العناية الكاملة.

(جوزيف نويصري/ العربي الجديد)

بطاقة موجزة

إلياس ذيب عطا الله، من لاجئي قرية إقرث، ومقيم في حيفا. حصل على دكتوراه فلسفة في فقه اللّغة العربيّة ونشر عشرات الأبحاث في علوم اللغة العربية. ومع رفيقة دربه الباقية روضة بشارة - عطا لله (1953- 2013).

مديرة «جمعية الثقافة العربية»، شارك الدكتور إلياس في تأسيس مشاريع ميدانية كبيرة في خدمة اللغة والهوية العربية. من كتبه: «الأفعال الثلاثيّة المضاعفة، معجم ودراسة» (2013)، «معجم الأفعال الرباعيّة في اللغة العربيّة المحكيّة في الجليل، تأثيليّ دلاليّ» (2010)، «المصطلحات المستعملة في كتب تدريس قواعد اللغة العربيّة، وواضعوها، عبريّ - إنكليزيّ، دراسة ومعجم» (2007)، «الأفعل الثنائيّة في العربيّة، معجم ودراسة» (2005)، «معجم الأفعال الرباعيّة في العربيّة، تأثيليّ دلاليّ» (2005)، «رسالة في تيسير الإملاء القياسيّ، دراسة ومعجم» (2005) «معجم المصطلحات القواعديّة الكلاسيكيّة» (2005).

مستوطنة حلميش، اراضي قرية النبي صالح، شمال غرب رام الله (أحمد البيّك/ العربي الجديد)

معمار الاحتلال وإعادة اختراع المكان

عبد الله البياري

يقال إن الجمال والرُّعب يتلازمان جوهريا في العمارة. من هذا المنطلق، تكون الهندسة المعمارية أداة لفهم الواقع السياسي. وبما أنه لا يوجد تقريباً في العالم مساحة إلا واستُعمرت، فإن المعمار الاستعماري مشترك عالمي لفهم أدوات السيطرة على الناس. أنماط الاستعمار الاستيطاني، في كل مكان، سعت دائماً إلى عزل وحماية المُستعمرين وإقصاء الواقعين تحت الاستعمار.

في حالة فلسطين، فإن المستوطنات بُنيت فوق التلال لتشرف من عل على القرى الفلسطينيّة، فتحاصرها وتُحكم السيطرة عليها في الوقت الذي تؤمّن حمايتها لنفسها. «سطوح المباني في المستوطنات حمراء، تطبيقاً لما تمليه قوانين تخطيط المستوطنات، تساهم في توجيه الجيش وتمييز المستوطنات» يقول المعماري إيال فايتسمان.

يُطالب المستوطنون بإبلاغ الجيش على الفور عن أي تحرّكات مشبوهة، إذ يُعتبرون جزءاً من جهاز الأمن والسيطرة. لتسهيل هذه المهمة، تم بناء المستوطنات على هيئة قلاع مرتفعة لها كامل السيطرة الرأسية مكانياً على الآخر وكشفه ومراقبته.

وبينما بنت الموجة الأولى المستوطنات على رؤوس التلال معتمدةً على مبدأ «فصل الحيّز»، تدفع الموجة الثانية بالاستيطان إلى مراكز الأحياء والمدن الفلسطينيّة. في بلدة سلوان المقدسية مثلاً، يمكن أن نرى تجمّعات استيطانية من 45 بيتاً مبنيّة في قلب البيوت الفلسطينيّة، كنوع من المستوطنات المصغّرة داخل النسيج المدني، مما يؤجج الاحتكاك إلى أضعاف ما هو عليه.

هذه الحالة الاستيطانيّة يحتجّ عليها المقدسيّون ويثورون ضدّها، لا سيما وأنها باتت تغزو معظم أحياء المدينة وضواحيها. وإن جزءاً أساسياً من عملية الاحتلال قائم على اختراق «الإدراك»، والذي يبدأ بالمكان. وبما أن القدس لا يمكن أن تكون مدينة محايدة ولا حتى متعادلة بالنسبة لإسرائيل؛ باتت الحاجة ملحة لاختراق إدراكها لذاتها، ولإدراك اليهود لها، مكانياً.

إن ثلاثية: الهيمنة / الإقصاء-الإزاحة / الاستبعاب قد توافرت في المكان المُحتل/المُستعمر، وهي ثلاثية قامت عليها الكولونيالية وما بعدها، وهذا ما يدفعنا إلى مقاربة المكان الواقع تحت الاحتلال مقاربة نقدية تستمد ديناميّاتها من أدبيات الكولونياليّة، بالتعاضد مع دراسات علم الإناسة والثقافي فيما يتعلق بالمكان والعمارة وتفكيكها نقدياً.

في سياق الاستعمار الاستيطاني لفلسطين الذي قام باحتلال الأرض/ المكان، يملك اليهودي حصراً حقّ «التجربة المكانيّة». وهنا نرى مثالاً «قانون أملاك الغائبين»، ودوره في طمس «تجربة» الفلسطينيين المكانية و«تغييبها» لحساب «مادية» التجربة المكانيّة الصهيونية قانونياً، والقانون إجراء معنوي وضع لإدارة الوجود المادي.

ويَحدث إنتاج «المكان المُجرّب» ضمن عمليات البنى التحتية المادية كالنقل والاتصالات؛ ولعل في مثال القطار في القدس (يربط المدينة بمجموعة من المستوطنات المحيطة بها) دليلاً واضحاً، وفي مثال آخر عمليات تفريغ «المدن الفلسطينية العربية» بجعلها «مختلطة» وصولًا إلى «المدن العبرية»، فمدينة يافا مثلاً طالما مثّلت «مشكلة» سياسية لقوى الاحتلال، وهو ما دفع إلى تبني استراتيجيات متكررة ومركبة من التطويق والرقابة والسيطرة، وهي آليات امتلاك المكان «المُجرَّب»، وصولاً إلى أن يصبح المجتمع المحلي الفلسطيني 5% فقط من المجموع السكاني لمدينة يافا في تركيبة «متروبوليتن» تل أبيب.

بالنسبة للبُعد «المُدرك» في المكان، فيتم نحته عبر الخرائط، لرسمه عقلياً في ذهن المتلقي/القاطن فيه، تماماً كما حدث في تجارب استعمارية أخرى إنجليزية وفرنسية وإسبانية، حيث كان دور الخرائط يتمثل في تفريغ إدراك الرجل الأبيض من السكان الأصلانيين، بوصف المكان «أرضاً عذراء» أو «أرضاً بكراً». وفي الحالة الفلسطينية اخترعت مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

ظهرت أنظمة جديدة للترسيم والتمثيل البصري، ولعلّ تشويه الأسماء العربية للمناطق المحتلة (كأن تصبح مثلاً «الناصرة» «نتسيرت»، برغم اعتراف إسرائيل باللغة العربية) يعد أساساً لخطاب احتلالي يبتغي إعادة إنتاج المكان إدراكياً بطمس مفاهيم ونحت أخرى.

ثمة بعد آخر هو البُعد «المُتخيَل» للمكان، ولعل أعلى مراحله هاهنا هي فكرة يهودية الدولة. والخيال اليهودي في هذا الوضع طوباوي، ينبثق من الرمز والأليغوريا. ولكن هذه المفاهيم لا تؤسس بمعزل عن مزدوجات مثل: الجذب/النبذ، الوصول/المنع.

يرى فايتسمان أن أحد عوامل قوة النظام الاستعماري الإسرائيلي، يكمن في «أنه من غير الممكن رسم الحدّ بين الاقتصاد والمجتمع والسياسة في إسرائيل: كل أفراد المجتمع الإسرائيلي، وكل الشركات والمؤسسات، يستثمرون في التجارة مع الاحتلال». ومن هنا يصل إلى أنه «ليس هناك مشروع استيطاني خلف الخطّ الأخضر فحسب. إنّ قوّة العلاقات والتشبيك للمشروع الاستيطاني لا تكمن في الضفة الغربيّة فقط، إنما داخل إسرائيل، في الحكومة الإسرائيليّة وفي المجتمع الإسرائيلي، في المؤسسات والاقتصاد».

هكذا نرى مدى التوازي والتماهي بين عملية هدسنة وإنتاج المكان معمارياً ومدينياً، وما صاحب ذلك من آليات وإجراءات وسياسات، وعملية إنتاج وإدراك الوجود الذاتي والهوياتي لغوياً، وكمّ العنف الحاصل بين السيرورتين.

1967 خفّة المقاوم التي لا تحتمل

إن نقد المقاومة لا يستقيم من دون التماهي مع ظاهرتها، مع مماسفة تمكّن النقد من الرؤية. هذه ضروريات من أجل ممارسة أكثر فاعليّة، وإلا تحوّل النقد إلى «نقض»، حيث تُنتقد المقاومة بغية إسقاطها كخيار خلّاف

طارق خميس

عاش سفيان الثوريّ متخفّياً من بني عباس، إذ شارك بثورة يقودها إبراهيم بن عبد الله ضدّ المنصور. شوهد يوماً يقلّب عشرة آلاف درهم، وهو يقول: «لولاها لتمَندَل بي بنو العباس» أي: استبدّوا به وابتزّوه، وبشكل حرفيّ «لاتخذوه مَنديلاً» يمسحون به ما يريدون.

الدرس الذي يلقّنه الثوريّ (اسماً وصفة) هو أنّ الفعل التحرريّ إن لم يؤمّن شروط بقائه من ذاته فمصيره «التمندل»، يحضُر حين يحتاجه الآخرون ويغيب حين يصبح حضوره مبلاً بأكثر مما يحتمل المشهد.

وإذا كان المقاتل قد ابتكر طريقه تحت الأرض؛ لكي لا تتمندل به الجغرافيا؛ فإنّ السياسيّ مازال عرضة لهذا التمندل، حتى أصبح التنقل بين العواصم العربية، أشبه بالوقوف على أبواب السلطان. وهو أمر، ليس فقط غير لائق بمقاومة تصنع خياراتها بقوّة الحق والسلاح، بل وأيضاً مُبعثِراً لأيّ إنجاز يمكن أن يراكمه الميدان.

لامركزيّة مقاتل الأنفاق؛ مكّنته من مراوغة الطيران، والسياسة التي تتخفف من الأمكنة المادية ورواتب الموظفين، هي أسهل حركة لمراوغة الفواعل السياسية المحدّقة بها. وهذا يشير للقرار الكارثيّ بالدخول في لعبة السلطة، وماهي إلا بلدية كبرى، ولم يكن النزول عنها (تشكيل حكومة وحدة وطنية) بالسهولة التي جرى توقّعها.

يخبرنا كتاب إيفان أريغوين «كيف يكسب الضعفاء الحروب » (2014) أن العتاد الحربي كطائر «الباتروس» في قصيدة لبودلير، وهو طائر يملك أجنحة ضخمة تمنعه من الطيران. في حرب الشيشان، عملت المدافع الروسية الثابتة ضد الروس حيث جعلت حركتهم أبطأ فسهّلت اصطيادها من قبل المقاتلين الشيشان والسيطرة عليها. وينطبق الأمر ذاته على مقاتلي المحاكم الصوماليّة، فحين سيطروا على العاصمة الصومالية «مقديشو» أصبحت إمكانيّة الإمساك بهم متاحة.

ليست الخفّة هنا هي التخفّف من مسؤوليات المقاومة تجاه المجتمع؛ بل هي تبعثرها داخله وفيه حتى تختفي الحدود بينهما.

إنّها خفّة المقاوم التي لا تحتملها أنظمة الرقابة الحديثة؛ لأنّها لا تجري على أرضيّتها.

إنّ الرهان الذي نقول به - نحن أنصار المقاومة - هو أنّ طريق «الحياة مفاوضات» قد أثبت فشله. لكنّ الحرب الأخيرة على غزّة تجعل من محاجة

«مخيّم فلنديا»، عمل إنشائي لـ وفا حوراني

الوسائل والنتائج محلّ شكّ؛ فنتكئ على المقاومة بوصفها خياراً أخلاقيّاً، ولا نتحدث هنا عن خطورة خسارة ميزة عقلانيّة المقاومة، أي بوصفها خياراً عقلانيّاً مثمراً، بل الأمر يتعدى ذلك للتأثير على «الأمل».

> ليس التنقل بين العواصم العربية عملاً سياسياً تمارسه المقاومة

ليست غزّة اليوم إقليماً مُضافاً لمجموع فلسطين، بل هي «موقع» بالمعنى الوجودي، نطل منه على أنفسنا ونطمئن إلى وجودنا في التاريخ. وليست غزّة مجرّد شأن «إداريّ»، فوظيفة هذا الموقع أن ينتج ويعيد إنتاج الأمل باستمرار، والتلهف على مغادرته؛ لا يجعل من الخطابات البلاغيّة التي تحاط به، أكثر من ثرثرة الخائف بصوت مرتفع في حلكة الظلام.

لا يجعل هذا الوصف غزّة بداية المقاومة ونهايتها؛ لكنّه يجعلها اليوم في طليعتها. وهذه الطليعية لم تكن لتكون دون مقدّمات من التضحية مارستها جغرافيّات أخرى. فعلى سبيل المثال: ما سقط من قتلى إسرائيليين في الانتفاضة الثانية يصل إلى 1069 قتيلاً بنسبة 1 إلى 4 بالمقارنة مع عدد شهدائنا، وكان في هذه المواجهة الثقل للضفة. وفي الثلاثة حروب التي خاضتها غزّة وحيدة، سقط ما يقارب 100 إسرائيلي، أي بنسبة 36 إلى 1. أداء الضفة المتفوّق لا يجعلنا نرتاح لما بات يعتبر تاريخاً اليوم؛ وإنما يجعل من سؤال «ما الذي حدث للضفة؟» أكثر جدّيّة.

سابقاً طُرحت الضفة سؤالاً لم تأخذه على محمل الجدّ، وهو ما الذي حدث «للفلسطيني الـ 48؟» مع أنّ بواكير العمل العسكريّ كانت من هناك. ما حدث يشير إلى عملية الاستفراد بالجغرافيا، بعدما جرى تقطيعها لجغرافيّات، وتنويع وسائل التعامل معها.

إنّ «إسرائيل» هي برنامج وجوديّ لملاقاة الآخرين ودحرهم إلى ما لا نهاية، إنها تستمد ماهيتها من إرادة حرب أصليّة في فهمها لنفسها. فيما بدا الفلسطينيون على طول مسار مواجهاتهم، يخوضون معارك يعرفون أنها ستنتهي بهدنة ما.

1948
النقب عاد وحيداً

بعد أيام من يوم الغضب الثالث (30 تشرين الثاني/نوفمبر 2013)، الذي قاده الحراك الشبابي، والذي شهد تصعيداً في المواجهات وإغلاق الشوارع في فلسطين المحتلة عام 1948، أوصل قضية الفلسطينيين في النقب إلى العالم؛ أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن «وقف التقدم بقانون برافر لترتيب الاستيطان البدوي في النقب».

وها قد مرّ عام وأشهر من تجميد المخطط قانونياً، ولم تتراجع عنه إسرائيل أو تتنازل، ولم تفعل سوى أن بدّلت الخطة، فأصبح تمرير المخطط يتمّ بشكل بطيء، ومدروس. ففي نظرة على العام الأخير فقط، تعرّض أكثر من 859 مبنىً للهدم في القرى «غير المعترف بها»، و«المعترف بها أيضاً. إن غياب رؤية استراتيجية للنضال وقدرة تنظيمية جعل النقب يعود وحيداً، بخلاف شعارنا: «النقب ليس وحيداً».

(حيفا/ ربيع عيد)

غزة في نقد مصالحة ميّتة

تشبه «عملية المصالحة» الفلسطينية بين حركتي «فتح» و«حماس»، التي تغط في سبات موت اكلينيكي، «عملية السلام». لكنها حيّة كساحة صراع داخلي بين الطرفين ومكوّن في ما بات يعرف بـ«الانقسام»

عاطف أبو سيف

إن المصالحة الفلسطينية الداخلية، بين حركتي «فتح» و«حماس»، باتت ترقد على سرير الموت، وليست المحاولات القليلة التي تهزها، مثل اتفاق الشاطئ أو تشكيل حكومة الوفاق أو «زيارة» الحكومة لغزة، إلا ناتجة عن الضغط البائس على صدر الميّت لعله يفيق. إن قراءة نقدية لمسيرة المصالحة، تعكس حالة العجز الفلسطينية الداخلية، وتدلل على واقع الحال الفلسطيني أيما دلالة.

من المؤكد أن المصالحة بصيغتها الحالية لم تعد صالحة. ويبدو أن ثمة مأسسة واضحة لعملية الانقسام الفلسطيني في بنية النظام السياسي، لدرجة بات فيها الانقسام جزءاً أصيلاً ومكوناً لا يمكن تجاوزه عند الحديث عن النظام السياسي الفلسطيني. بل إن الصيغ التي تُطرح للخروج من قتامة اللحظة الراهنة تعكس رغبة، بل في بعض الأحيان حماسة، في التخيّف مع إفرازات الانقسام على الأرض وفي تأبيده.

تشبه عملية المصالحة الفلسطينية، التي تغط في سبات موت اكلينيكي، عملية السلام. لاحظ استخدام مصطلح «عملية»، وهو التوصيف الأثير للإدارة الأميركية للإشارة للمفاوضات الماراثونية بين «الفلسطينيين» و«الإسرائيليين».

فـ«مسيرة السلام» التي ظنّ البعض أنها لن تطول أبعد من انتهاء الفترة الانتقالية، احتفلت ببلوغها العشرين عاماً.

أعوام الانقسام ظنّ بعضهم أيضاً أنها سوداوية ينغلق فيها الأفق أمام الفلسطينيين أكثر من تلك الراهنة، فإن الحل الوحيد الممكن أمام الفلسطينيين، والمتمثل في تجسيد المصالحة، يغدو مع الوقت أكثر بعداً، والطريق إليه أكثر وعورة، وخصوصاً في ظل حالات الشد والجذب والتراشق الكلامي بين طرفي النزاع الفلسطيني.

> تشبه عملية المصالحة الفلسطينية، التي تغط في سبات موت اكلينيكي، عملية السلام

ما بعد العدوان

وبعد عدوان إسرائيل على قطاع غزة في صيف 2014 على مدى 52 يوماً، وتدميرها لعشرات الآف المباني والمنشآت وقتلها لـ 2174 شهيداً ومجرحها لأكثر من عشرة آلاف مواطن، وعمليات التهويد المستمرة في الضفة الغربية والإجراءات القاسية بحق المدينة المقدّسة سكاناً ومكاناً، والتوسع السرطاني للاستيطان؛ ورغم استبسال الشعب الفلسطيني سواء من خلال مقاومته الباسلة في قطاع غزة خلال العدوان أو تصديه ومواجهاته مع قطعان المستوطنين والجنود يوماً بعد يوم في مطبخ جدتي صحن خشبيّ مجوّف صغير لجمع حبّات الصنوبر الخشبية الصغيرة، تلك التي يلتقطها جدّي في طريقه من باب الأسباط إلى «المُصلّى القِبلي» حيث تتواجد الصنوبرات على جانبي الطريق. تتساقط الحبّات في أيام الصيف مع هبوب ريح بعد الظهيرة، ولها - بعد أن «تطقّش» غلافها الخشبي بحذر شديد حتى لا تتفتّت الحبّة الداخلية - نكهة تأخذنا إلى زمن خيالي، تمنحك شيئاً أشبه بالنشوة، كأنّك كياوية على سبيل المثال، إلا أن ذلك يحتاج إلى تحقيق موسّع.

عودةً إلى الأشجار، فقد خلّف وخلّف تساقطها فراغاً مخيفاً مؤلماً في روح المسجد ونفوس مريديه من البشر والطير. ثمّة بعض الأشجار التي سقطت كان يسكنها أكثر من مائتي طائر، كالسروة الأولى المقابلة للمسجد القبلي على سبيل المثال لا الحصر. أمّا عن أسباب تساقطها، فتعود في الغالب حسب بسام الحلّاق إلى عوامل طبيعية كتقدمها في العُمر، أو عدم استقامة بعضها، وكذلك للعواصف والثلوج وغيرها.

غير أن ما يفاقم الأمر هو منع سلطات الاحتلال زراعة أو إدخال أي شتلة لساحات المسجد منذ سنوات. وتُفرض غرامات مشطة وعقوبة بالسجن على جيران المسجد لو حاولوا تهريب شجرة، كما تقتلع أي شتلات جديدة تتم تنشئتها خفية داخل المسجد من الأشجار الموجودة.

ولا بدّ من الإشارة أيضاً، أن الاحتلال يمنع أي عملية حفر في المسجد الأقصى سواءً كان ذلك لزراعة شتلة أو لأعمال الترميم في البنية التحتية، كما يوضّح لنا أبو خليل، ويتابع إن «لليهود معتقداً دينياً يمنع الحفر لأي سبب في المكان».

وعن آخر المحاولات لزرع أشجار جديدة، يقول محدّثنا إنها «كانت عند زيارة رئيس حكومة السلطة الفلسطينية رامي الحمدالله» في خريف 2014. وقتها أحضرت ثلاثون شجرة زيتون طول الواحدة منها متر تقريباً، إلا أنه يعقّب: «مُنعنا من إدخالها، فوضعناها عند قبور الشهداء خارج باب الأسباط، وعدنا في اليوم التالي ولم نجدها».

للأسف، لا نسمع بمثل هذه التفاصيل في الإعلام المهلل لـ«السلطتين» الفلسطينيّتين أو «الأوقاف الأردنية» التي يُفترض أن يكون المسجد الأقصى وغيره من الأوقاف الإسلامية في القدس تحت حمايتها و«سيادتها».

ماذا لو استمر الأمر على هذا الحال خلال السنوات القليلة القادمة؟ حين تسقط الأشجار، ولا يأتي من يُكمل مشوارها. كيف تكون الطريق الشرقية من باب الأسباط إلى المسجد القبلي؟ الطريق الأخيرة التي اعتاد غالبية سكان القدس من المسلمين أن يسلكوها مودّعين ذكرياتهم، وسماء مدينتهم، وأشجارهم وأعشاشها في خمس دقائق تُقطع بها الطريق سريعاً.

(القدس القديمة)

قدس حين تسقط بقية الأشجار

تسقط الأشجار في «الحرم» لتقدمها في العُمر او بسبب الثلوج، في وقت يمنع الاحتلال غرس أشجار جديدة

حسام غوشة

في مطبخ جدتي صحن خشبيّ مجوّف صغير لجمع حبّات الصنوبر الخشبية الصغيرة، تلك التي يلتقطها جدّي في طريقه من باب الأسباط إلى «المُصلّى القِبلي» حيث تتواجد الصنوبرات على جانبي الطريق. تتساقط الحبّات في أيام الصيف مع هبوب ريح بعد الظهيرة، ولها - بعد أن «تطقّش» غلافها الخشبي بحذر شديد حتى لا تتفتّت الحبّة الداخلية - نكهة تأخذنا إلى زمن خيالي، تمنحك شيئاً أشبه بالنشوة، كأنّك كياوية على سبيل المثال، إلا أن ذلك يحتاج إلى تحقيق موسّع.

عودةً إلى الأشجار، فقد خلّف وخلّف تساقطها فراغاً مخيفاً مؤلماً في روح المسجد ونفوس مريديه من البشر والطير. ثمّة بعض الأشجار التي سقطت كان يسكنها أكثر من مائتي طائر، كالسروة الأولى المقابلة للمسجد القبلي على سبيل المثال لا الحصر. أمّا عن أسباب تساقطها، فتعود في الغالب حسب بسام الحلّاق إلى عوامل طبيعية كتقدمها في العُمر، أو عدم استقامة بعضها، وكذلك للعواصف والثلوج وغيرها.

غير أن ما يفاقم الأمر هو منع سلطات الاحتلال زراعة أو إدخال أي شتلة لساحات المسجد منذ سنوات. وتُفرض غرامات مشطة وعقوبة بالسجن على جيران المسجد لو حاولوا تهريب شجرة، كما تقتلع أي شتلات جديدة تتم تنشئتها خفية داخل المسجد من الأشجار الموجودة.

ولا بدّ من الإشارة أيضاً، أن الاحتلال يمنع أي عملية حفر في المسجد الأقصى سواءً كان ذلك لزراعة شتلة أو لأعمال الترميم في البنية التحتية، كما يوضّح لنا أبو خليل، ويتابع إن «لليهود معتقداً دينياً يمنع الحفر لأي سبب في المكان».

وعن آخر المحاولات لزرع أشجار جديدة، يقول محدّثنا إنها «كانت عند زيارة رئيس حكومة السلطة الفلسطينية رامي الحمدالله» في خريف 2014. وقتها أحضرت ثلاثون شجرة زيتون طول الواحدة منها متر تقريباً، إلا أنه يعقّب: «مُنعنا من إدخالها، فوضعناها عند قبور الشهداء خارج باب الأسباط، وعدنا في اليوم التالي ولم نجدها».

للأسف، لا نسمع بمثل هذه التفاصيل في الإعلام المهلل لـ«السلطتين» الفلسطينيّتين أو «الأوقاف الأردنية» التي يُفترض أن يكون المسجد الأقصى وغيره من الأوقاف الإسلامية في القدس تحت حمايتها و«سيادتها».

ماذا لو استمر الأمر على هذا الحال خلال السنوات القليلة القادمة؟ حين تسقط الأشجار، ولا يأتي من يُكمل مشوارها. كيف تكون الطريق الشرقية من باب الأسباط إلى المسجد القبلي؟ الطريق الأخيرة التي اعتاد غالبية سكان القدس من المسلمين أن يسلكوها مودّعين ذكرياتهم، وسماء مدينتهم، وأشجارهم وأعشاشها في خمس دقائق تُقطع بها الطريق سريعاً.

(القدس القديمة)

> تفرض غرامات وعقوبة بالسجن على جيران المسجد لو حاولوا تهريب شجرة

باحة المسجد الأقصى (العربي الجديد)

خسارتنا لمفهوم «الحرب المفتوحة» جعلنا نقاتل وعيننا على وقف إطلاق النار، حتى وإن كنّا لا نستجديه، إلّا أنّنا لا نتوقع غيره. لم نعتد على خوض مواجهة ممتدة ومفتوحة بدون زمن مغلق، ويعود ذلك في جزء منه للقدرة الذاتية، وجزؤه الأكبر لثقافة سياسيّة قدّرت أنّ السلاح وظيفته التحريك لا التحرير.

ولكي يعاد الاعتبار للمقاومة المسلحة كخيار استراتيجي للتحرّر، لا يكفي أن يكون أداء الميدان القتاليّ رشيقاً. لقد أعقب الانتفاضة الأولى «اتفاق أوسلو»، فيما حلّت «دولة أيلول» كطرح سياسيّ بعد الانتفاضة الثانية. في كلتا الحالتين، لم تتخلف التضحية وأداء الميدان؛ وإنما تخلّفت السياسة. وسؤالنا عن انفصال الفعل العسكريّ عن منتجه السياسيّ ليس ترفاً، إنّه الكفيل بجعلنا لا نطرح مستقبلاً سؤالاً مشؤوماً آخر: «ما الذي حدث لغزّة؟».

طرحت المقاومة أهدافاً معيشية إدارية، كالمطار والميناء وخلافه. ودون ربط هذه المطالب بسيادة توسّع من إمكانيات الفعل، جرى التعامل معها على أنّها مطالب الحرب، رغم أنّ الحرب كانت دفاعيّة الطابع، أي أنّها تهدف لرد العدوان. وجد السياسيّ هنا فرصة ليدلّل على فعاليّة المقاومة وقدرتها على صنع الإنجاز. لكن حدث العكس، فما كان إنجازاً على مستوى الميدان لم يعد كذلك فور ربطه بأهداف معلنة، إذ لم يكن بالإمكان تطبيقها في ظل ظروف إقليمية متواطئة.

لقد جرى الذهاب إلى القاهرة دون قاهرة تقف لصفّنا، وتمّ تغييب قوى اقليمية مثل إيران. وبإهمال الروافع السياسية، وُجدت الوفود نفسها ضيفاً بلا دعوة. ولأنّ السياسة هي فن استكشاف العدو - بحسب كارل شميت - فإنّ العدو هنا لم يجر تحديده بدقّة، كما أنّ الصديق لم يكن حاضراً.

ترسّخت في الثقافة السياسيّة الفلسطينيّة ثنائيّة وهميّة هي ثنائيّة: «السياسة» و«المقاومة»؛ على اعتبار فتح تمثّل الخيار الأول، فيما تمثّل حماس الخيار الثاني. فتح اختزلت السياسة بطاولة التفاوض، وجعلت الطاولة هي بداية الفعل السياسي ونهايته.

بينما اختزلت حماس المقاومة بالفعل المادي على الأرض. هل ننسى أن السلاح يثبّت حقائقه على أرض الواقع وتأتي الطاولة تتويجاً لهذه الحقائق؟ بدون مقاومة تكون السياسة فرصة للقاءات في الفنادق الفخمة، وبدون السياسة تكون المقاومة تضحيات مفتوحة لا تحمل توقيعاً خاصاً.

لا يمكن اعتبار طقوس التنقل بين العواصم العربية عملاً سياسياً تمارسه المقاومة، ولا التعويل على القانون الدولي (الذي لا يُعوّل عليه غيرنا بالمناسبة) عملاً سياسياً.

لقد أصبحت الممارسة السياسيّة ذاتها من الـلّا مفكر فيه، ولم يطالب أحد بنتائج محددة. لقد بدا الأمر وكأنّ الفاعل السياسيّ قد انتقل من النظر إلى السياسة على أنها سعي وراء أهداف محدّدة إلى معاملة السياسة على أنها سعي فحسب.

في الواقع لقد ثابرنا على ممارسة سياسة لا علاقة لها بوظيفة السياسة؛ إنها «السياسة وقد تخفّفت من وظيفتها».

(رام الله)

> تشبه عملية المصالحة الفلسطينية، التي تغط في سبات موت اكلينيكي، عملية السلام

بيوم في الضفة الغربية، إلا أن ثمة واقعاً لا يمكن النظر في أفقه بعيداً وتبصر المستقبل.

فالمقاومة الفلسطينية دون وجود أجندة سياسية متفق عليها، تتحوّل مع الوقت إلى عمليات دفاع عن النفس وردّات فعل على تصرّفات الاحتلال.

كما أن المسار السياسي المغلق والمفاوضات التي لم تعد تجدي لن ينجحا في جلب أي شيء للشعب الفلسطيني ما لم يتم تفعيل كل أدوات النضال التحرّري بغية تحقيق صلابة ميدانية تدعم الموقف السياسي. المؤكد أن مثل هذا لن يتحقق طالما كانت الوحدة الوطنية معطلة وغير منجزة. وإذا كانت المصالحة لن تُنجز عبر الاتفاقات العلوية بين التنظيمات، فإن الأمل الوحيد المتبقّي لإنجازها يظل عبر إرادة شعبية تضغط على صدر المريض الميت لعل الحياة تدب فيه. إن واحدة من أهم إخفاقات العملية الوطنية الداخلية هي تحييد المكوّن الشعبي كعنصر ضغط.

وقود الانقسام

ولعلّ وقود الانقسام الحقيقي لحرائق الانقسام الفلسطيني الذي بدأ في عام 2007، هم هؤلاء المواطنون الموزّعون بين شباب عاطل عن العمل، وعمّال مهرة لا يجدون ما يبذلون فيه رمق أطفالهم، وطلبة ومرضى عاجزين عن الخروج عبر المعابر، وهم أصحاب المشاغل والمصانع المعطلة بسبب عدم توفر المواد الخام، وهم المزارعون والصيادون والحرفيون وغيرهم. كل هؤلاء ظلوا على هامش النقاش، كان الأمر لا يعنيهم، رغم أنهم المتأثرون المباشرون بعملية الانقسام وتعثر خطوات المصالحة في أكثر من مرة.

> تشبه عملية المصالحة الفلسطينية، التي تغط في سبات موت اكلينيكي، عملية السلام

وتدريجياً، بدت عملية المصالحة كأنها صراع آخر، بل تحوّلت إلى جزء من الانقسام. ويمكن لمتتبع لمسيرة المصالحة، التي توقفت في أكثر من محطة وانتهت إلى أكثر من اتفاق فاشل، أن يقف على عشرات الشواهد التي تشير إلى هذا التحوّل الذي هيمن خلاله خطاب اشتغل على تأبيد مفردات الانقسام في الوعي العام وتطوير تفسيرات انتقلت من الحيّز الحزبي إلى التمثيل الذهني.

لقد تعذّر، عبر السنوات الثماني الماضية، إنجاز المصالحة بفعل قوى ذاتية، ناهيك عن إمكانية استحضار تأثير القوى الإقليمية والدولية في ذلك، بدءاً من إسرائيل والولايات المتحدة، مروراً بمصر ووصولاً إلى إيران. لكن المؤكد أن ثمة رغبة فلسطينية غير ناجزة، فكيف لها أن تنجز شيئاً خارجها؟ إن ما يفتقد اليوم لتحقيق «المصالحة» وبعثها من موتها هو الإرادة، التي لا تتوفر للأسف.

(غزة)

سهيل سالم، 220 × 100 سم، غزة 2014

لجوء

العتاب السوري والدرس الفلسطيني

احمد دياب

هناك اعتقاد طاغٍ لدى عددٍ، ليس بضئيلٍ، من المثقفين السوريين أن الفلسطينيين لم ينصفوا قضيتهم. والقائلون بهذا الاعتقاد لا ينكرون أن عدداً يسيراً من المثقفين الفلسطينيين وقف موقفاً مناصراً للثورة السورية. سواءً أيام كانت ثوريتها ناصعةً جليةً أو بعد أن استحالت حرباً ضروساً بفعل جرائم النظام وتدخلات القوى الإقليمية.

موقف هؤلاء المثقفين السوريين يطالب بموقف أعلى صوتاً من عدد أكبر من الفلسطينيين، إن لم يكن مطالباً بموقفٍ واضح من كل الفلسطينيين. هذا التوقع إشكالي إلى حدٍ بعيد. هو تجلٍّ جديد لموقف عتيق من الشخصية الفلسطينية في مخيال السوريين وغيرهم من العرب.

صورة الفلسطيني عندهم واحدة من اثنتين، فهو إما أن يكون مناضلاً أممياً فدائياً حبيساً لثقافة الستينيات والسبعينيات. وهذا الفلسطيني لا يرونه ولا يعرفونه سوى من كتاباته ومن صوره في الجرائد وعلى الشاشات. يُكِنّون له احتراماً وشيئاً من التقديس، وإن تراوَح شعورهم تجاهه بين الشفقة والتضامن من بعيد.

وهو إما أن يكون لاجئاً في أسفل الطبقة المتوسطة أو عاملاً مُياوماً يعيش في المخيّم أو في حي فقير كانوا يأنفون زيارته طوال عقود الاستبداد. إن هم رأوه في شوارع المدينة في مكان عمله أو في دكانه، نظروا إليه شزراً وحتى اشمئزازاً إذ يرون فيه سبباً سهلاً في اضطهادهم كمثقفي عواصم من قبل السلطة الدكتاتورية التي تدّعي تبنّي قضيّته.

غير أن الفلسطيني في القرن الحادي والعشرين يستعصي على أي تنميط. الفلسطيني في القرن الحادي والعشرين يكتب بالألمانية من قرى باڤاريا، ويكتب بالعربية من القدس وحيفا، وبالإنكليزية من نيويورك ولندن، وبالفرنسية من بروكسل ومونتريال.

الفلسطيني في لبنان يبحث عن عمل كريم وفيزا ولو إلى آخر الأرض، والفلسطيني في عمّان يبالغ في أردنيته ويقلّص فلسطينيته سعياً وراء ترقية حكومية تضمن مستقبله في الأردن. الفلسطيني السوري اللاجئ من الجيل الرابع قد يقاتل مع الثوار في درعا، وقد يتزوج هولندية من آب فلسطيني من لبنان سبقه في اللجوء إلى هولندا بـ 30 سنة هرباً من ذات السبب: جنود وحدود العرب.

من المفارقات أن هؤلاء المثقّفين السوريين في أكثر لحظات تاريخهم تماهياً مع التجربة الفلسطينية يقفون موقفاً يخلو من التفهم لمعنى الفجيعة والنكبة. إنهم يصدّرون أحكاماً على الفلسطينيين لو طبّقوها على الشعب السوري ذاته لفشل أكثر من نصفه في امتحان الولاء للثورة بينما هم يدعون في الوقت عينه تمثيل أوسع قطاعات الشعب السوري.

موقف هؤلاء المثقفين النخبويين يذكّر بمواقف المثقفين المحافظين في أوروبا وأميركا. فتراهم في إثر كل عمل إرهابي يطالبون من كل مواطنٍ مسلم أو عربي الظهور على الملأ وإعلان موقفٍ مدين وشاجب كأن مسؤولية العمل تقع عليه شخصياً.

خَبِر الفلسطينيون، لعقود طويلة، العزلة والوحدة السياسية. وتعلموا أن عدالة القضية لا تُفضي لتضامنٍ أوتوماتيكي. ما يتمتع به الفلسطينيون اليوم من تضامن واسع في العالم مع قضيتهم إنما أتى نتيجة عملهم السياسي والثقافي الدؤوب لعشرات السنوات. تعلموا، بعد قدرٍ من الأخطاء والانتكاسات، أن قضيتهم وإن كانت عادلة وكارثية الأبعاد لا يجوز لها أن تعميهم عن ضرورات العمل التضامني من ملاقاة الآخر العربي وغير العربي على علّاته في منطقة تحترم أولويات ومشاكل وصراعات هذا الآخر.

لا يعني هذا أن على السوريين أن ينتظروا عقوداً قبل أن يروا عدالة قضيتهم ظاهرةً بيّنةً في أرجاء الأرض، ولكن مما لا شك فيه أنهم سيختصرون الطريق على أنفسهم بما لا يُقاس إن هم تعلّموا الدرس الفلسطيني. وأوله أن الفلسطيني كما السوري إنسان يصيب ويخطئ وأن عليه ترتيب أولوياته؛ فجلاء عدالة قضية ما، لا تضمن بالضرورة حتمية ولا تسريعَ إيجادِ حلٍ منصفٍ لأصحابها.

(نيويورك)

العربي الجديد
ملحق فلسطين
الأحد 29 مارس / آذار 2015 م 9 جمادى الآخر 1436 هـ
العدد الأول السنة الأولى
Sunday 29th March 2015

بالصورة

على حافة الساحل الفلسطيني تُركت قرية لمصيرها، منهكة ومحاصرة، لكنّها منتشية بتفاصيل أهلها.عند تلك الحافة يصحو توفيق ليرتب تدفّق الموج ويغتسل بالضوء المتسرّب إلى غرفة مسكونة بذكريات الصيادين

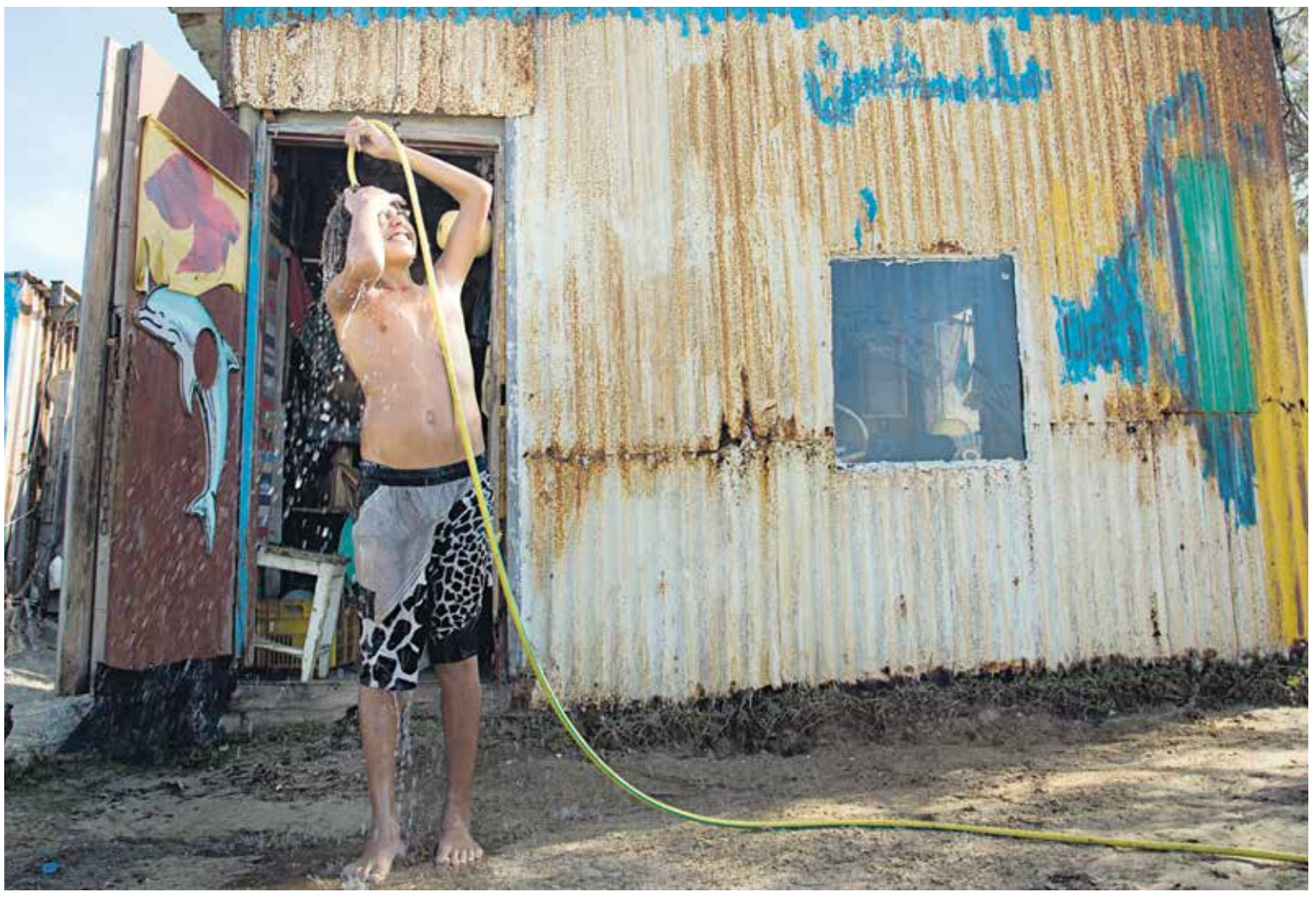

وقفة عند جسر الزرقاء

سامي علي

تتجمّع في كيلومتر مربع ونصف. حياة تجري في رقعة صغيرة بين شاطئ البحر المتوسط غرباً وبين شارع حيفا - يافا الرئيسي شرقاً، وبين الجدار الترابي الهائل من جهة قيسارية جنوباً والذي يفصل بين أكثر المستعمرات الإسرائيلية ثراءً وبين إحدى أكثر البلدات الفلسطينية فقراً، وبين «المحمية الطبيعية» ومستوطنة «معجان ميخائيل» ووادي التماسيح التي تحدها شمالاً.

متناهية الصّغر ومزدحمة، يقطنها 13 ألف إنسان.

رقعة محاصرة ومزدحمة، يقطنها 13 ألف إنسان، اسمها جسر الزرقاء.

القرية العربية الوحيدة الباقية على ساحل فلسطين بعد النكبة، والتي تمارس المؤسسة الإسرائيلية منذ عقود، سياسات التمييز والتضييق بحق أهلها.

حصار عنصري سياسي وجغرافي يحول دون نموها وتطورها رغم ما تتسم به من خصال وكنوز طبيعية ومقومات إستراتيجية بفعل موقعها الساحر.

تمثّل القرية حيّزاً مفقراً نتيجة للظروف السابقة، فنسبة العائلات الفقيرة تصل إلى 80%، وتعاني أزمة سكنية وقلة في أراضي التطوير والبناء، ويعيش سكانها تحديات وصعوبات اجتماعية واقتصادية، ويعانون نقصاً في المرافق وبنية تحتية هشة وعمراناً فوضوياً ارتجالياً نتيجة السياسات الإسرائيلية المفروضة عليها.

غالبية السكان عمّال وأجراء يتقاضون رواتب زهيدة، و39% من النساء هن كادحات معيلات لأسرهن، ونسبة البطالة تصل إلى نحو 20%، ونسبة خريجي الجامعات والدارسين فيها بالكاد تتجاوز الـ 4%.

جسر الزرقاء هي جوهرة محاصرة بالزمن الاستعماري، حصار سياسي واجتماعي واقتصادي وجغرافي، لكنها ورغم ذلك، لم تفقد هويتها الفلسطينية وعفويتها الوطنية والقومية، لتبقى جوهرة الساحل الفلسطيني.

فوتوغرافيا: محمد بدارنة

قرنفلة لذاكرة الجدات

غدير أبو سنينة

عام 2075، سأكون قد بلغت من العمر 95 عاماً، هذا إذا ورثت جينات طول العمر من جدّتيَّ لأُمّي وأبي. على الأغلب، ستكون أعضاء جسدي تعمل كماكينة مهترئة يحتفظ بها الناس من باب الوفاء للأشياء القديمة. وفي أفضل الأحوال، سيحيط بي الأبناء والأحفاد منتظرين أن ينفّذ بي أمر الله، المهم حينها. بماذا سأهذي؟

«ستّي بهيّة» - جدّتي لأبي - ماتت والعالم ينتظر قدوم عامٍ جديد. تقول هويَّتها الشخصيَّة إنها وُلدت يوم 1 كانون الثاني/ يناير 1921. لسنا متأكدين من ذلك، لكنّها ماتت بعد ذلك التاريخ بـ 94 عاماً بالتمام والكمال. بردٌ شديد كان يلفحُ عمّان. ولم يكن بوسع العجوز التي تعلّمت من نكباتنا ونكساتنا، أنَّ النِّعم - كالأرض والبيت إلى زوال - أن تُشعل المدفأة لوقتٍ طويل، أو لدرجات أعلى. كانت تفكّر على الأغلب أنَّه لن ينفعها سوى التوفير في ظلِّ ظروفٍ سيّئةٍ عايشتها، ولن يُفلِح ظرفا الزّمان والمكان الجديدَيْن في تغيير قناعتها أبداً.

في أيّامها الأخيرة، تهيّأ لها أنها في بيوت أبنائها الدافئة في مدينة أريحا. وكانت تحيل السبب في دفئها إلى أنّ جوَّ أريحا أدفأ من جوِّ الخليل، رغم تفضيلها الأخيرة دوماً، لتظن أنها تنتقل ما بين أريحا والخليل كلما تغيّرت عليها أجواء البيوت. لفظت ستّي أنفاسها الأخيرة في عمّان، لكنّها كانت قد ماتت فعلاً - كما تعتقد - في الخليل.

قبلها بثلاث سنين، وفي ذات المدينة (عمّان)، ماتت «ستّي نورز» - جدَّتي لأمّي - التي كانت تحمل في حقيبتها المليئة بالأدوية صورة عن وصفة طبيّة احتفظت بها منذ كان عمرها 12 عاماً من طبيبها في يافا. كانت تلك أحد الأشياء التي تُشعرها أنَّ المدينة ما زالت مُخلِصةً لها. كما أنها إحدى الطرق التي استطعنا من خلالها تخمين عمرها؛ إذ كانت الوصفة مؤرّخة بتاريخ 1932.

لم نكن نشاهد ستّي نورز، إلّا وهي متسمِّرة أمام نشرات الأخبار. ولم تكن تجالسنا إلا لتحدّثنا عن البارود الذي دأبت تصنعه أيّام الانتداب البريطاني في فلسطين، والذي كانت تشترك مع الثوار في تهريبه. جالت «ستّي» في أيامها الأخيرة في شوارع يافا. وكانت تنادي على محمد جمجوم، أحد الشهداء الثلاثة الذين أعدمتهم سلطة الانتداب البريطاني عام 1929، مردّدةً الأهازيج التي غُنّيت فور إعدامهم، من دون أن تنسى المرور بمدينة اللّد التي قضت بها جزءاً من طفولتها. كلُّ ذلك وهي ممدّدة على سرير المرض في عمّان.

تذكّرتُ جدَّة الشاعر الفلسطيني الهندوراسي رولاندو قطّانٍ، وقد خرجت من فلسطين طفلةً في بدايات القرن العشرين. حين أصيبت بالزهايمر، عادت للحديث باللغة العربية، تماماً كما كانت تفعل قبل الشتات. ماذا ستفعل فلسطين حين تفقد ذاكرة الجدّات؟ النساء اللاتي التقطن صورها وهَذيْن باسمها حتى الممات.

حين ترحلُ الجدّات، يغادر معهنَّ جزءٌ من التاريخ. ألبومٌ من صور «البلاد»، يُدفن في بلادٍ أخرى، وجزءٌ من الذاكرة يضيع.

الصور في ذاكرتي الآن، لا علاقة لها بالخليل التي أنتمي بالدم إليها، ولا بفلسطين التي أحمل هويَّتها كلاجئٍ، نزعت عنه السياسات الدولية حقّ العودة.

- في عامي الخامس والتسعين، بماذا سأهذي؟

(ماناغوا/ نيكاراغوا)

هيئة تحرير العدد
انطوان شلحت
شوقي بن حسن
نجوان درويش

للتواصل: pal@alaraby.co.uk